
www.kotobarabia.com
نصوص
تحديات عصر جديد
www.kotobarabia.com
أحمد ابراهيم الفقيه

ديات
عصر جديد

أحمد إبراهيم الفقيه

تحديات عصر جديد

ينقل نص أدبى قديم صورة لإحدى مراحل عصور الانحطاط عندما كان السيد يقول لأحد مواليه أو خدمه :

ـ وافقنى أيها العبد وافق!

فيرد المولى قائلاً:

ـ نعم يا سيدى نعم !

ـ أريد أن أزور المقابر!

ـ نعم يا سيدى نعم، فما زيارة المقابر إلا عظة وعبرة ومنفعة لا يقوم بها إلا صاحب عقل كبير وأخلاق رفيعة ومكانة عظيمة.. و..

ـ ولكننى عدلت عن زيارة المقابر !

ـ نعم يا سيدى نعم، فلن تلقى هناك إلا العظام البالية التى تجلب لك الهم والغم فما أعظم عقلك الذى أشار عليك بالعدول عن هذه الزيارة و..

ـ وافقنى أيها العبد وافق !

ـ نعم يا سيدى نعم !

ـ سأقيم عرساً وأتزوج امرأة أخرى !

ـ هنيئاً لك يا سيدى بهذه الفكرة العظيمة التى تجدد بها شبابك وتزين بها بيتك بعد أن تقدم العمر بزوجتك الأولى التى ذبل جمالها وضعفت صحتها وما عادت تصلح لرجل مثلك !

ـ ولكننى عدلت عن إقامة العرس !

ـ نعم يا سيدى نعم، فما الزواج الثانى إلا دليل عقوق ونكران لزوجتك ذات الحسن والجمال التى تحفظ لك الود وتملأ عليك البيت هناء وسعادة وأولادا !

ولعل سيد عصرنا الحديث قد صار الآن رئيسا لدائرة من الدوائر أو زعيما لحزب من الأحزاب أو مسئولا سياسيا لتنظيم يحكم البلاد، وسوف يلتفت السيد الجديد ليجد عبده الآن يحمل ناقل الصوت أو آلة التصوير أو جهاز الإبراق الصحفي، فقد تفنن أسياد عالمنا الثالث فى جعل الإعلام الذى يتبع الدولة وسيلة تطبيل وتزمير بدل أن يكون وسيلة نقد وتوجيه وتثقيف. وما إن يقول السيد الجديد :

ـ وافقنى أيها العبد وافق !

حتى يتقدم الإعلام الحكومى قائلاً :

ـ نعم يا سيدى نعم !

فيشير السيد الجديد إلى مواقع القوى العظمى على الخريطة ويقول بلغة عربية فصيحة :

ـ لقد قررت أن أعقد حلفاً مع أيسلندا !!

فيجيب مكبر الصوت قائلاً :

ـ نعم يا سيدى نعم، لقد عرفت كيف تختار حليفاً قويا منيعا قادراً على ردع الأعداء، تربطك به الأواصر التاريخية والروابط الثقافية وتجمع بينك وبينه العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية فهنيئاً لك بهذا العقل الكبير.

ـ ولكننى أرى أن أعقد الحلف مع جانبولاد.

ـ نعم يا سيدى نعم، فماذا كنا سنستفيد من جزيرة بأقصى الشمال لا تملك من مقومات الحياة إلا جرافات الثلوج وقوارب الصيد، أما جانبولاد فما أكثر الروابط التى تربطنا بها وعلاقات النسب والمصاهرة بيننا وبين أهلها وفوق هذا وذاك فهى تقع على مدار الجدى وهذا طالع سعد وهناء ودليل خير وبركة فالحمد ا الذى هداك لهذا الرأى العظيم.

ـ لقد تذكرت الآن أن جانبولاد مجرد اسم وهمى لبلاد خيالية قرأت عنها فى إحدى الروايات !

ـ نعم يا سيدى نعم، ومع ذلك فسنعقد معها أعظم الأحلاف ونبرم معها اتفاقيات التبادل التجارى والثقافى والدفاع لمشترك ونحيل الخيال حقيقة والوهم واقعا بفضل ما لديكم من حكمة وعبقرية.

***

تتغذى نشرات الأخبار فى إذاعات العالم المسموعة والمرئية على ما يحدث فى الدنيا من حروب وفواجع وكوارث. إن هذه الحوادث المفجعة تشكل المادة الرئيسية لأى نشرة أخبار. ولذلك فإنه لم يعد ممتعاً أو مسليا أو مجلبا للفخر ان يسمع الإنسان اسم بلاده يتكرر كثيرا فى هذه النشرات. إن الذين تغربوا عن أوطانهم من أبناء البلاد العربية غالبا ما يتشوقون لسماع أخبار ما يحدث فى بلادهم منقولاً عبر إذاعات وتليفزيونات البلاد التى يعيشون فيها. وهم عادة يبدون أكثر لهفة وحماسا لسماع هذه الأخبار فى المراحل الأولى لإقامتهم فى بلاد الغربة، ثم يكتشفون شيئاً

فشيئا حقيقة المثل الاجنبى الذى يقول : الأخبار الطيبة هى ألا تكون هناك أخبار.

ومعنى ذلك إن أى أخبار تسمعها عن طريق هذه الأجهزة الإعلامية التى تخصص حصة صغيرة لنشرات الأنباء لن تكون على الأغلب أخباراً طيبة، إذا إن تليفزيون البى بى سى أو الآى بى سى، لن يهتم كثيرا إذا ما كان موسم الأمطار فى القرية التى جئت منها خصيبا هذا العام أو أن الغلال أكثر وفرة من العام الماضى أو أن مشروعا إسكانيا قد تم تنفيذه أو مدرسة تم افتتاحها أو أن نسبة النجاح فى الثانوية العامة قد سجلت ارتفاعا قياسيا هذا العام.

لن يأتيك بالنتائج التى حققها الإحصاء العام لعدد السكان وإنما يأتيك بإحصاء عدد القتلى والجرحى فى حادث اعتداء على الحدود أو نتيجة سيارة مفخخة أو كارثة من كوارث السير التى تحدث فى الأرض والسماء، لن يأتيك إلا بأخبار مضاعفات النزاع الذى ينشب بين بلادك وبلاد أخرى وما فعلته الاطراف الدولية لفض هذا النزاع.

وإذا لم تكن بلادك قوة عظمى مثل روسيا أو أمريكا أو على الأقل إحدى بلاد العضوية الدائمة فى مجلس الأمن

ممن تهتم الإذاعات بتحركات قادتها واجتماعهم لما له من تأثير فى السياسة الدولية فإنك لن تحلم بخبر يأتى من بلادك إلا إذا اكتسى طابعا تراجيديا، إذ ما أهمية أن يهتم العالم بقطر صغير إذا لم يكن لشيء مثير أو مريع.

إننا لا نسمع كثيراً فى نشرات الأنباء أخبار النرويج أو الدانيمارك أو هولندا أو السويد أو سويسرا وهى أكثر بلاد العالم تقدما وحضارة. بل إن أغلبنا لا يعرف أسماء قادتها وحكامها بينما تجعله الأحداث الفاجعة يسمع كل يوم أخبار أوغندا أو نيكارجوا أو فولتا العليا ويحفظ أسماء قادتها مع أنها بلدان بائسة فقيرة متخلفة، قليلة العدد وضئيلة الشأن فى الحسابات الدولية.

لقد صار الوطن العربى مصدرا أساسياً وموردأ مهماً من الموارد التى تعيش إذاعات العالم على مخزونها الكارثي. إن التغيير الوحيد الذى طرأ أخيراً جاء بفضل الانتفاضة التى تشهدها الأرض المحتلة، فبرغم أن نشرات الأخبار تنقل أحداثاً مؤسفة عن الضحايا الذين يسقطون من أهلنا وأبنائنا فإن الجانب الإيجابى فيها أنها كشفت عن الوجه الحقيقى لدولة الكيان الصهيوني. هذا الوجه الذى ظلت إسرائيل تخفيه

عن الرأى العام تحت أكداس من الأصباغ وفنون الدجل والتمويه والتنكر فجاءت الانتفاضة ترفع القناع وتزيل الأصباغ و تكشف للعالم حقيقة هذا الوجه البشع الكريه.

***

يمكن القول إن كل محطات التليفزيون فى أقطار العالم العربى تتبع الحكومات (وأقول يمكن لأن ما يسمى حكومة فى لبنان لم يعد لها من النفوذ ما يجعلها قادرة على إدارة هذه المحطات فسقط كل شيء فى أيدى زعماء الطوائف ولوردات الحرب الأهلية).

والعالم العربى ليس ظاهرة فريدة فى هذا المجال، لأن هذا هو الحال مع المحطات التليفزيونية فى تسعة أعشار بلاد العالم.

وأن تتولى الحكومة احتكار الإرسال المرئى ليس معناه أن الأمر صار مثيراً للريبة والشبهات، إذ ليس بالضرورة أن يكون التلفاز الحكومى شراً كله. وبما أن الحكومات تتفاوت فى درجات السوء والصلاح فإن محطات التليفزيون لن تكون

إلا تعبيراً عنها وانعكاساً لها ومهما تباينت هذه الحكومات فإن احداً لا يقول إن الشركات الخاصة مثلاً أفضل منها أو إنها أكثر فائدة ونفعاً واعظم حرصاً على مصالح المشاهدين.

ولعل أفضل صيغة لادارة هذا الجهاز البالغ الفعالية هى الصيغة التى وصل اليها أهل الجزيرة البريطانية عندما جعلوا من هيئة اذاعتهم مؤسسة مستقلة، تحررت من سيطرة المعلنين والشركات الخاصة وأموال المستثمرين، فهى مؤسسة يتولى المواطن تمويلها عن طريق الرسوم الخاصة بحيازة أجهزة الاستقبال، وتديرها هيئة من الأمناء ولا يحكمها إلا ميثاق الشرف الذى اتفق عليه العاملون بها وهى صيغة تحتاج إلى بيئة وصلت فى تدرجها الحضارى واستقرارها السياسى وازدهارها الاقتصادى شأواً عالياً. ولذلك تبقى الحكومة فى بلادنا احتمالاً وحيداً قابلاً للتحقيق.

لقد أصبح التلفاز أخطر مؤسسة لتوجيه الرأى العام، ومعنى ذلك ان الحكومة عندما تتولى أمره فانها ينبغى أن تديره بمثل ما تدير سياستها التعليمية، وهذا للأسف الشديد لا يحدث فى معظم تليفزيونات العالم العربي. إن الاهتمام فى هذه الاجهزة إنما يوجه عادة إلى نشرات الأخبار والبرامج

السياسية، بينما تترك بقية المواد والبرامج لصغار الكتبة والموظفين يتولون بذوقهم اختيارها وتقديمها للجمهور، ومعنى ذلك انها تترك لهم مهمة تكوين أذواق المشاهدين وصياغة الوجدان الجماعى لأبناء المجتمع.

إن واجب الحكومة وهى تتولى أمانة هذا المرفق التثقيفى و التعليمى الخطير ان تستعين بمجلس من المفكرين والعلماء والمبدعين والمربين يتولون معها مسئولية ادارته ورسم سياسته لكى لا يتحول من جهاز تثقيف وتنوير وترفيه إلى جهاز تجهيل وتعتيم.

***

استاءت إحدى الحكومات من نتائج الموسم الزراعى فى محافظة من محافظاتها وعرفت ان السبب يكمن فى ما حدث للتربة من تلف نتيجة الاستهلاك ونتيجة عدم استخدام الاسمدة التى لا يعرفها فلاح هذه المنطقة، فسارعت مشكورة إلى جمع مزيد من الأزبال والنفايات والفضلات لاستخدامها فى إنتاج كميات إضافية من السماد تغطى حاجة هذه المنطقة، وقررت توزيعها مجانا على فلاحيها حتى يمكنهم

التعرف على فوائد هذا السماد ليتولوا بعد ذلك شراءه بأنفسهم. إلى هنا والأمر طبيعى يحدث مثله فى أى مكان من الدنيا وتقوم به أحياناً الشركات التجارية التى تسعى لترويج انتاجها الجديد لتوزيع كميات منه مجاناً لتعريف الناس بهذا الانتاج واغرائهم باستهلاكه. ولكن ما لا يمكن ان يحدث مثله فى أى مكان آخر من الدنيا غير عالمنا العربي، هو ما يعقب هذا الاجراء من تعبئة اعلامية لاظهار منجزات الحكومة وخدماتها الجليلة للفلاحين، وسرعان ما تأتى البعثات الاعلامية من مصورين ومذيعين لنقل آثار هذه المكرمة الجديدة من مكارم الحكومة، وإذا بقرى تلك المحافظة التى ظلت بعيدة عن اهتمام الاعلام ترى صور مواطنيها فى التليفزيون وهم يشكرون ويهتفون، ويدخل الاعلاميون احدى هذه القرى لأول مرة، ولأن لهذه القرية مشاكلها مع الماء والكهرباء ولأهلها هموماً تتعلق بالعلاج والتعليم والسكن وغلاء الاسعار فهم يهرعون لابلاغ مطالبهم لهؤلاء الزوار الكبار، ولكن البعثة التليفزيونية لا تريد أن تستمع إلى المشاكل والهموم، انها ساعة للفرح وليست ساعة للأنين والتشكي، لقد وصل السماد إلى القرية ووجب أن تدق الطبول

وتحرق الأبخرة تمجيداً للحكومة العظيمة، ويدور مشهد من أكثر المشاهد طرافة ومأساوية فى ذات الوقت فها هو فلاح يغطى وجهه البؤس، مصاب بأمراض الأنيميا والتراخوما والشيخوخة المبكرة، يظهر بملابسه الرثة المتسخة وقد وضعوا أمامه كومة من السماد ليرد على أسئلة المذيع، عن تعلق المواطنين بحكومتهم التى اهدتهم السماد مجاناً فيستخدم مهارته الاذاعية من أجل وضع الكلمات فى فم الفلاح المسكين لنعرف منه أنه لولا هذا السماد لصار الآن أعمى أو كسيحاً أو أبكم. فقد حماه سماد الحكومة من العاهات وحمى أولاده من الجنون وحمى قريته من الزلازل التى كانت ستداهمها لولا هذا السماد العجيب الغريب، ويمضى المذيع فى اذلال هذا الفلاح وكأن هذا السماد الذى أرسلته الحكومة إكسير الحياة وليس مجرد نفايات وفضلات وأزبال.

***

تذكرت وأنا أقرأ فى الصحف أخبار الدول الاشتراكية التى تستعد لفتح إذاعتها المرئية والمسموعة للإعلان التجاري، حفل تعارف على ظهر باخرة سياحية، عندما

جاءت موظفة الاستقبال تسألنى عن هوايتى لتسهيل مهمة التعارف والتقديم، ومتأثراً بجو الاجازة والسياحة، وابتعاداً عن التورط فى الحديث عن هواية تثير الجدل والنقاش وتجلب الخصومة والخلاف، قلت للموظفة بأسلوب ساخر أن هوايتى هى مشاهدة الاعلانات التليفزيونية. واندهشت عندما وجدت أن موظفة الاستقبال أخذت الأمر مأخذاً جاداً وصارت تبحث لى عن شركاء فى هذه الهواية، أتعرف إليهم واتبادل معهم الحديث عن خبرتنا المشتركة فى هذا المجال. واكتشفت عندئذ ان ما ظننته حديثا عابثاً حول الاعلانات، يتحول إلى قضية ساخنة، وإن هذه الهواية، التى لم أكن أظن أن أحداً سيهتم بها بجوار الذين يحبون الأدب والموسيقى والسينما والسياحة والزهور، تحظى بشعبية كبيرة بين راكبى السفينة. لقد صارت الاعلانات المرئية جزءاً من حياتهم وتعاملهم اليومى مع الدنيا، فكان لابد أن يصير لها معجبون يتحمسون لها ويدركون أهميتها ويفاضلون بين الاعلان الجيد والاعلان الردىء ووجدت نفسى أدخل فى حديث عن الاحتكارات الدولية والشركات المتعددة الجنسية التى تسخر أعظم المهارات والكفاءات لتقديم الاعلان. ولأن الاعلان لابد أن

يكون قصة قصيرة تصور فى جزء من الدقيقة موضوعاً وتقدم وجهة نظر وتسعى إلى نيل رضا المشاهد واعجابه، فلا بد ان مجموعة من المعارف والخبرات والفنون تشترك فى تقديم هذه اللحظة التى تحتاج إلى قوة الأداء والتنفيذ. ومهما كانت البضاعة سيئة السمعة مثل السجائر فلابد أن تقدم إلى المشاهد باعتبارها شيئاً مبهجاً وجميلاً ومفيداً ولابد أن تخترق كل قناعاته وأفكاره لتكسبه إلى صفها. ورأيتهم يضربون أمثلة باعلانات صارت لها الآن قيمة فنية وجمالية وتاريخية تتجاوز قيمتها الاعلانية. ولأننى كنت جاهلاٍ بهذا العالم وأسراره فقد عدت من تلك الرحلة أكثر انتباهاً إلى أهمية الاعلان فى حياتنا، وأكثر قدرة على الاستمتاع بالجوانب الفنية لهذه الاعلانات مهما كانت تتناقض مع قناعاتى وأفكارى عن البضاعة التى تعرضها. ان هناك جانباً جمالياً لا علاقة له بالقيم والمفاهيم والقناعات. وسمعت رأياً أعجبنى للكاتب غورفيدال، يعزو فيه شعبية الرئيس السابق للولايات المتحدة الامريكية رونالد ريجان، لاعلانات التليفزيون، فكل شيء فيه يذكر المواطن الامريكى بهذه الاعلانات ابتداء من صوته وطريقته فى الحديث. وهو مثل

الاعلان التليفزيونى يغطى خواءه وسطحيته بالأسلوب والأداء والتلوين العاطفى فى نبرات الصوت. ولأن الامريكيين يحبون الاعلانات المرئية ويعيشون معها ليلاً ونهاراً فقد انتخبوا ريجان وأحبوه لهذا السبب.

إن عالم الاعلان التليفزيونى (ولنترك جانبا الصحافة والاذاعة) صار ظاهرة تدل على العصر وترمز اليه أكثر من أى ظاهرة أخري. والنظر إليه باعتباره رمزاً لعيوب المجتمع الاستهلاكى وأداة من أدوات التضليل وتغييب ارادة المتفرج، ليس تحليلاً كافياً أو منصفاً لهذا الاعلان، إنه أيضاً إعلام وأخبار. وهو أيضاً فن وتقنية ومهارة وخبرة، وهو يأتى ليؤدى وظيفة يبدو إنها صارت ضرورية فى مجتمعات العلم والصناعة والاستهلاك. إنه يقدم للمشاهد احساساً بالأمان فى عالم مملوء بأخبار الكوارث والمآسى والصراعات، احساساً بأن كل شيء متوفر وموجود وفى متناول اليد، حتى لو كان وهماً فإن المشاهد يحتاج إلى هذه الجرعة من الطمأنينة والأمان.

ولأن كل شيء فى الاعلان المرئى جميل ويهيج ورائع إلى حد الكمال، فإن المشاهد عندما يرى حصة اعلانية بين

فقرات الكوارث التى تقدمها نشرات الاخبار يشعر بشيء من الارتياح والامتنان لأن العالم ليس سيئاً وقبيحاً إلى الحد الذى توحى به الاخبار.

إن لهذه الاعلانات مفعول المهدئات التى نعالج بها الهزات النفسية والعصبية التى تصيبنا بها وتيرة الحياة فى هذا العصر. وإذا كان لهذه المهدئات بعض الاضرار الجانبية فمتى رأينا علاجاً يخلو من هذه الأضرار؟

***

هناك إنجاز عربى عجيب يتصل بتأثير الارسال التليفزيونى وفعاليته لا أعتقد أن الدارسين لوسائل الاتصال بالجماهير قد انتبهوا إليه لأنهم لو فعلوا ذلك، لعرف العالم أن انقلابا فى فهم هذه الوسيلة وادراكها تحقق على أيدينا. لقد استخدمنا هذا الجهاز استخداماً يعطل فاعليته تمام التعطيل، بل اننا وصلنا إلى نتيجة مذهلة لا أعتقد أن أحداً قد سبقنا إليها وهى الحصول على تأثير عكسى لكل ما تنوى تحقيقه من هذا الجهاز.

فنحن جميعاً نعرف أن اصحاب الشركات المنتجة والمصنعة لمختلف السلع والبضائع والمواد الاستهلاكية،

يدفعون كل عام ما قيمته بلايين الدولارات مقابل نشر اعلانات تحبب المشاهدين فى بضائعهم وتدفعهم لشرائها، وكلما تكرر الإعلان عنها ازداد اقبال الناس عليها، ويصرف المرشحون للمناصب الرئيسية فى الغرب الأموال الطائلة من أجل شراء حصص فى برامج التلفاز يظهرون فيها على الناس لتزيد من شعبيتهم وتتولى تشجيع الناس على انتخابهم، وكلما استطاع مرشح من المرشحين الفوز بحصص أكثر كانت حظوظه فى النجاح أكثر من منافسيه، ولهذا فإنه لأول مرة فى تاريخ تعامل الناس مع هذا الجهاز الخطير يتحقق العكس، أى أن المشاهدين يزدادون نفوراً وكراهية مما تعرضه عليهم الشاشات الصغيرة فى عالمنا العربي، وإذا كانت الوجوه التى يتكرر ظهورها فى هذا الجهاز هى الأكثر شعبية فى العالم فإن الوجوه التى يتكرر ظهورها لدينا غالباً ما تصبح موضع سخط المشاهدين ونقمتهم.

وسأضرب أمثلة من هذا التاريخ الذى بين أيدينا. لقد اشتهر الرؤساء السابقون الثلاثة أنور السادات، والحبيب بورقيبه، وجعفر النميري، بأنهم من أكثر رؤساء الدول ظهوراً على شاشة التلفاز، وفى حين كان النميرى يتولى

بنفسه تقديم البرامج التليفزيونية التى يرد فيها على رسائل المشاهدين فإن السادات اقترن اسمه وعهده وسمعته الدولية بهذا الجهاز الذى كان يتبعه ويقتفى أثره أينما ذهب إلى أن لقى نهايته المأساوية أمام كاميراته، وأما بورقيبه فقد جعل التلفاز التونسى أشبه بمحطة خاصة تنقل أخباره وأقواله وحصص المدائح والأغانى التى تقال تمجيداً لشخصه، ومع ذلك فإن هؤلاء الرؤساء الثلاثة، وبغض النظر عما حدث ضدهم من انتفاضات، يتشاركون فى أن شعبيتهم قد وصلت مع نهاية عهودهم إلى أدنى مستوياتها، وبدأ واضحاً إنه كلما ازداد ظهورهم فوق شاشة التلفاز ازداد نفور الشعب منهم وسخطه عليهم. وعندما انتهوا انتهت معهم ملايين الكيلو مترات من الأشرطة المرئية التى أخذت لهم والتى ظنوا انها سوف تضمن لهم البقاء فى الحكم بمثل ما تضمن لأعمالهم الخلود. لقد ذهبوا ضحية ايمانهم بفعالية هذا الجهاز وتصديقهم للآراء التى تقول إنه أفضل وسيلة لإرغام الناس على حبهم، وفى حين ارادوا تعزيز مكانتهم وزيادة شعبيتهم وتأكيد حضورهم فى أذهان المشاهدين عن طريق الاسراف فى الوقوف أمام كاميرات التليفزيون، إذا بهذه الكاميرات

ذاتها هى التى تعمل على تنفير الناس منهم وتسهم فى التعجيل بانتهاء عهودهم.

إنها احدى المفارقات العجيبة التى وجب الوقوف عندها والبحث عن دلالتها ومغزاها لأنها أبطلت كل تلك المفاهيم والأفكار التى يتداولها الناس على مدى سطوة هذا الجهاز وجبروته، القادر على أن يجعلك تحب ما لا تريد حبه وتشترى ما لا تريد شراءه.

لقد أثبت المواطن العربى أنه أكثر سطوة وجبروتاً.

***

عاد المذياع ليحتل فى حياتنا دورا مركزيا مع توتر الاحداث وتصاعد الأزمة التى يشهدها الوطن العربي. المذياع الذى أهملناه واستبدلناه بالتحديق فى شاشات التلفاز، ومصاحبة الأشرطة المسجلة المرئية بما تقدم لنا من تسلية وترفيه. عاد الآن ليكون مرشدنا ودليلنا وسط هذا الجو اللافح، العامر بالعواصف والاعاصير وقعقعة السلاح، ننتقل به من مكان إلى آخر، ونتحلق حوله فى المكاتب وعلى الشواطئ وأمام الدكاكين ونضعه بجوار رؤوسنا عندما ننام، وأحياناً نستعين بأكثر من مذياع ينقل لنا أصوات المذيعين من

شمال الأرض وجنوبها، وشرقها وغربها حيث تختلط الاصوات كما تختلط المشاعر والعواطف والانفعالات، تهتز نفوسنا تفاؤلاً مع خبر يأتى كأنه حبل النجاة، ينتشلنا من قاع الجب، ثم يأتى خبر آخر يعيدنا إلى بئر اليأس والتشاؤم. قد نقرأ الصحيفة أول الصباح، وقد نشاهد التلفاز آخر الليل، ولكن المذياع يبقى الرفيق الملاصق لنا فى أوقات الشدة، ليلاً أو نهاراً، منه نستمد معلوماتنا ونستعير من ألوانه الوان مشاعرنا وانفعالاتنا، ونستنجد به فى كل لحظة أن يقول خبراً يفرحنا، وننتقل من محطة إلى أخرى بحثاً عن هذا الخبر المفرح الذى لا يأتي. تتشنج أصابعنا ونحن ندير الأزرار، وتتهدج أصواتنا ونحن نشتم المذيع الذى يقول شيئاً يصدم مشاعرنا ولكن المذيع لا يتهم بسخطنا أو تشنجنا، انه يقول ما يقوله حتى لو تحول إلى كوابيس تسيطر على نومنا ويقظتنا، ونحن مع ذلك لا نستطيع ان نفك ارتباطنا بهذا المذياع أو نرميه جانباً عقاباً له. نلصق آذاننا به، نتسقط الأخبار ونسمع كلام المحللين وتصريحات أهل السياسة، وننتقى بعض الاقوال التى نعيدها فى المجالس ونتحمس لها أثناء النقاش، ونواصل دورتنا مع دورة الليل والنهار، مذيعون يقولون نفس

الكلام عبر جميع المحطات، يعيدون قراءة نفس الأخبار، ساعة وراء الأخرى، ونحن نلهث وراء هؤلاء المذيعين دون كلل أو ملل.

ولا أدرى إذا كانت علاقتنا بالمذياع كمواطنين عرب، تختلف عن علاقة الآخرين به أثناء الأزمات، فنحن ما أن تلوح أمامنا بوادر الأزمة حتى نذهب إلى المذياع طلباً للمعلومات. ولعل ذلك يرجع إلى أن ثقافتنا التى تمتد جذورها فى أرض المجتمع البدوي، الرعوي، ثقافة شفهية، سماعية تعتمد على الرواية ونقل الأخبار شفاهة، أكثر مما تعتمد على التوثيق والكتابة، ولذلك صار للمذياع كل هذه الحظوة فى حياتنا.

وإذا كان المواطن العربى معنياً قبل الآخرين بما يحدث فوق أرضه، ويحمله هما يوميا يطغى على همومه الأخرى، فإن حجم الاهتمام الذى تمنحه الدوائر السياسية فى العالم لهذه الاحداث يجعل منها حوادث تهم كل انسان يعيش فوق الأرض.

إن ما نراه من قلق يعم الكرة الأرضية بأجمعها يؤكد لنا حقيقة كبرى من حقائق السياسة المعاصرة، وهى مدى

أهمية وخطورة هذه الرقعة من الأرض المسماة بالوطن العربي.

إن قيمة وحيوية هذه الأرض التى ننتمى إليها، وادراك العالم اليوم بأنها مركز العصب ومصدر القوة وسرة هذه الكوكب، يجعلنا مطالبين بأن نعيد حساباتنا ونتنبه إلى مدى قوتنا وندخل معارك الصراع والتحدى بإرادة موحدة قادرة على فرض وجودها فى عالم لا يعترف إلا بالقوة القائمة على الحق والشرعية.

***

الكلمة المسموعة التى تذاع عبر الأثير، و الكلمة المقروءة التى تنشر فى صحيفة أو كتاب، ملمحان من ملامح عصر جديد بدأ باختراع المطبعة وواصل التطور عبر هذه التقنيات الحديثة التى تستخدم الأقمار الصناعية هو عصر وسائل الاتصال الجماهيري.

والكاتب فى هذا العصر أسعد حظاً من أسلافه القدامى الذين كانوا يلقون أشعارهم وأطروحاتهم الفلسفية وحكاياتهم المروية فى الأسواق، أو يتعاملون ـ فيما بعد ـ مع دكاكين

الوراقين، فهو الآن يستطيع أن يرى كلمته تصل إلى عيون وآذان الملايين من الناس عبر هاتين الوسيلتين.

ورغم أننى أنتمى إلى الكلمة المكتوبة التى تطبع فى كتاب أو صحيفة، إلا إننى صاحب تجربة صغيرة فى التعامل مع الإذاعتين المسموعة والمرئية، وقد بدأ ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً عندما كنت أكتب برنامجاً للإذاعة المسموعة كان يذاع صباح كل يوم باسم »مجرد رأي«، وكان مثيراً وجميلاً أن أرى ردود الفعل التى تصل من جمهور جديد لا يقرأ الصحيفة أو الكتاب هو جمهور الكلمة المسموعة، وأتعرف على هذه الامكانيات الهائلة التى تحملها وسائل الاتصال الحديثة التى تخاطب جمهوراً واسعاً وعريضاً وأبعد مدى من أن تصل إليه الوسائل المطبوعة. ولقد كان هذا الإغراء الذى تحمله الوسائل الحديثة كافياً لأن يجعل كتاباً كثيرين يهجرون مواقعهم القديمة فى عالم الصحيفة والكتاب وينتقلون للعمل بالإذاعتين المرئية والمسموعة. ويسعون إلى تطوير أدواتهم وإمكانياتهم بما يناسب التعامل مع هذه الوسائل السمعية والبصرية. إنه خيار صعب يواجه أى كاتب فى هذا العصر

الذى يطالب بالتخصص وامتلاك المعرفة بالتقنيات التى تحتاجها كل واسطة من هذه الوسائط التى تخاطب الناس.

وصعوبة الاختيار، تأتى من أن لهاتين الوسيلتين ـ أى الكلمة المسموعة والمكتوبة ـ إيجابيات وسلبيات.

فجهاز الاذاعة، مرئياً أو مسموعاً ـ برغم اتساع الدائرة التى يتعامل معها من مستمعين ومشاهدين ـ فإن ما يقوله يتناثر عبر موجات الضوء والهواء، ويذوب لحظة اذاعته فى هذا الفضاء الذى يغلف الكون. بينما تحتفظ الكلمة المطبوعة برغم الدائرة الصغيرة لقرائها، بقدرتها على البقاء لتكون فى متناول القارئ أحقاباً بعد زمن كتابتها.

ولعل الصيغة السعيدة الوحيدة هى تلك التى اهتدى إليها بعض الكتاب والمبدعين المتعاملين مع الكلمة المطبوعة، عندما وجدوا من الكتاب الإذاعيين من اعتنى بتطويع انتاجهم ليناسب وسائل البث المرئى والمسموع، فنقلوا ما كتبوه من أشعار وقصص وذكريات ومذكرات وتراجم إلى مادة إعلامية سمعية وبصرية يكون مردودها متعة وفائدة لأوسع قاعدة من المستمعين والمشاهدين والقراء.

ويتحقق ذلك اللقاء المخصب الجميل بين الكلمة المكتوبة والكلمة المسموعة.

***

تتسع يوما وراء الآخر المسافة التى تمنحها الصحف لمشاركات القراء. وبقدر ما تزداد هذه المشاركات عمقاً وجدية بقدر ما يزداد حجم المسئولية الملقاة على الصحيفة، فهى لابد أن تسعى للارتفاع بمستوى ادائها وخدماتها وأسلوب تناولها للأحداث ومعالجتها للقضايا لأنها تدرك أن وراءها قارئاً حازماً يتابع ويحاسب ويتدخل لابداء الرأى والملاحظة وليس مجرد قارئ يتلقى ما يقدم له دون اعتناء أو رأى أو نقاش. لقد أصبح القارئ شريكاً فى العملية الانتاجية لوسيلة الاعلام ومن هنا وجب عليه هو الآخر أن يرتفع إلى مستوى هذه المشاركة وما تترتب عليها من مسؤوليات. ان انقلاباً خطيراً يحدث الآن على مستوى الصحافة العربية، تقنية وطباعة وتوزيعاً، فلأول مرة منذ اختراع الصحافة يتحقق ذلك الانجاز الذى يجعل القارئ العربى فى مشارق الأرض ومغاربها داخل الوطن العربى وخارجه يقرأ الصحيفة ذاتها وفى اليوم نفسه الذى صدرت

فيه. لقد كان هذا يحدث وبشكل ضيق على مستوى الكتب والمطبوعات الدورية، إما أن يحدث ذلك بالنسبة لصحيفة يومية تتعامل مع الاحداث الساخنة والوقائع الجديدة وعلى هذا المستوى من الاتساع وبهذا القدر من الانتشار والديمومة والاستمرار فهذا ما لم يتحقق إلا منذ فترة وجيزة مضت، أى مع استخدام الاقمار الصناعية فى نقل الصحف العربية وطباعتها مما يجعلنا نشهد انجازاً علميا وصحفياً قادراً على أن يحدث أعظم التحولات فى أساليب التعامل مع الرأى العام العربي، إن ظهور منابر صحيفة قومية تتجاوز الطرح القطرى والاقليمى وتتجه إلى القارئ العربى أينما كان، سيكون فرصة عظيمة لخلق رأى موحد حول الكثير من القضايا التى تهم المواطن العربي، إذ مهما كانت القضايا ذات طابع عاجل وملح فإن بإمكان صحافة يومية توفرت لها امكانات التوزيع والوصول إلى القارئ على امتداد الوطن العربى بعد لحظات قصيرة من صدورها، بإمكان صحافة من هذا النوع أن تعمل على استنفار الرأى العام العربى وتعبئته وتحريكه من أجل الوصول إلى مواقف حاسمة ومحددة حول تلك القضايا.

ومن هنا تأتى مهمة القارئ فى هذه المرحلة الصحفية الجديدة، إنها مرحلة أكثر خطورة وجدية من أى مرحلة مرت بها الصحافة العربية فى تاريخها الذى يمتد لأكثر من مائة وخمسين عاماً، وهى تريد قارئاً يتكافأ مع هذه الخطورة والجدية، إننا بمثل ما نطالب الصحيفة بأن تتجاوز الطرح القطرى والتناول الاقليمى للمشاكل والقضايا وتبتعد عن وجهة النظر الاحادية أو المحكومة بمنظور محلي، فإننا نطالب القارئ أيضاً بأن يرتفع إلى مستوى التحديات التى تفرضها هذه المرحلة، نريده أن يكون شريكاً فى المسيرة الجديدة يرى ويراقب ويحاسب ويعاتب، يكشف أى انحراف عن الاتجاه الصحيح، ويقدم دعمه وتأييده لما يراه صادقاً وأميناً، نريده أن يكون صمام أمان، وعامل إثراء وإغناء لصحافته العربية، يدفع بها دائماً نحو المزيد من الإبداع والتجديد والابتكار.

***

يحتمى قارئ التعليق الاذاعى بالهواء. فهو يأتى راكباً موجات الأثير، لا نرى له وجهاً ولا نمسك عليه دليلاً ولا نستطيع أن نصل إليه بردودنا أو تعليقاتنا أو احتجاجاتنا. لو كان حاضراً بيننا لقذفنا برأينا فى وجهه، ولطالته صيحات الاحتجاج والاعتراض على كلامه، وقد يصل الغيظ ببعضنا إلى رميه بالبيض أو الطماطم أو الكراسي، ولكنه احتمى ببعده عنا وجلس يطلق كلماته التى تسافر آلاف الاميال لتصل إلى آذاننا. كلمات تأتى من الهواء وتذوب فى الهواء، لأنه لا يقول كلاماً مكتوباً يراجعه الناس فيما بعد ويأخذونه بالحجة والبرهان على ما قاله، ولذلك فهو يقول ما يقوله دون أن يجد من يعارضه أو يناقشه، نستمع إليه صابرين. نرمى بشتيمة لاتصل إليه، ونقفل المذياع أو نبقيه مفتوحاً فقد وصل بكلامه إلينا، واورثنا قلقاً أو ضيقاً، دون أن نستطيع عمل شيء حياله، اشتغل بقلب الحقائق، وتزييف التاريخ وابتاع واشترى فى قضايانا ومصائرنا وسخر من فهمنا وعقولنا، دون أن يلقى تبكيتاً أو تأنيباً، أو يخشى محاسبة أو مراجعة، فهو لا يكتب كتاباً أو يحرر صحيفة نستطيع أن نعود إليها متى شئنا ونرفعها كدليل ضده عندما يأتى وقت الحساب

والعقاب. ولذلك فقد فرض الحديث عبر الهواء اسلوباً جديداً فى الخطاب لم يكن موجوداً قبل ظهور هذه الاختراعات الحديثة، وأنشأ مدرسة جديدة، هى مدرسة الاشباح التى تنهال عليك بكلام كالحجارة، أو تنهمر عليك بالكلمات والضربات دون أن تراها أو تستطيع لها دفعاً أو تملك لضربها رداً، وإذا كان الرجل الذى يأتى بحضوره الشخصى للكلام فى ندوة أو مهرجان خطابى يراعى مشاعر الجمهور ويحترس فى حديثه كى لا يقول شيئاً يستفزهم أو يغضبهم وإذا اراد أن يقول شيئاً مجافياً للحقيقة تحايل على تمريره بأساليب لا تصدم مستمعيه ولا تستهين بذكائهم.

وإذا كان المتعامل بالكلمة المكتوبة يعرف أن كلامه سيكون وثيقة تبقى شاهداً عليه فى حياته وبعد مماته، ويستطيع كل انسان أن يعود إليها متى شاء ويواجهه بها إذا احتوت تحريفاً أو تشويهاً، فإن قارئ التعليق الاذاعى يعرف إنه بمنجاة من كل ذلك، ولهذا فهو يجلس مطمئنا خلف ناقل الصوت، وداخل غرفة البث التى تغلفها العوازل وتحيط بها الحراسات ويرسل حديثا عبر الهواء يقول خلاله ما شاء دون أن يخشى محاسبة أو مراجعة، وإذا كانت طاقية الاخفاء

اسطورة استفاد منها اصحاب القصص والأشرطة الخيالية فإنها تحولت مع قارئ التعليق الاذاعى إلى حقيقة من حقائق الواقع الذى نعيشه كل يوم، فهو يرتدى طاقية الاخفاء، ويمارس ما شاء من عبث بنا واستهتار بمشاعرنا وليس غريباً بعد ذلك أن يصبح هذا العصر الذى هو عصر انجازات العلم وتدفق المعلومات وإلغاء المسافات هو أيضاً عصر الأكاذيب الكبيرة وعصر برمجة العقول البشرية فى قوالب مثل قوالب الأحذية، وإذا قال مذيع فى الصين أن مسرحية »هاملت« خطر علينا، تنادى ألف مليون مواطن يطالبون بشنق كاتبها الذى مات منذ أربعمائة عام.

إن هذا الصوت الشبحى الذى يركب الهواء ويزيف التاريخ ويقلب الحقائق يعتمد فى ترويضك على عامل واحد هو الزمن، فهو يعرف إنك تغضب وتثور مما يقوله من أكاذيب، ستفعل ذلك فى اليوم الأول والثانى والثالث وقد تقفل المذياع وتذهب ساخطاً إلى المطبخ فتحرق اصابعك وأنت تحاول اعداد كأس من الشاى يعيد إلى اعصابك المتوترة هدوءها، وما أن تمضى بضعة أيام حتى تسأم من لعبة حرق الاعصاب والاصابع وتترك المذياع مفتوحاً وتحاول اهماله

ونسيانه وعدم المبالاة بما يقوله من هراء ثم تدريجياً ومع مضى الأيام تكون أكاذيبه قد تسربت إلى وعيك ولاوعيك واسهمت فى تكوين قناعاتك دون أن تدري. إلى أن تكتشف إنك صرت تردد بعض ما سمعته وتنسبه إلى نفسك، كما صرت تسمع بعض ما قاله المذياع يتردد على ألسنة أصدقائك، وشيئاً فشيئاً يكون الصوت الشبحى الذى جاء يركب الهواء، ويلتحف بالسحب والظلام قد احتواك إلى الأبد.

***

برغم أن وسائل الاعلام الجماهيرى من اذاعات مسموعة ومرئية صارت تحتل واجهة الاعلام الحكومى فى الوطن العربى إلا إن الصحف التى تصدرها وزارة الاعلام التى تتكلم باسم الحكومة مازالت تحظى بأهمية كبيرة كمصدر معلومات ووسيلة تواصل بين الحاكم والمواطن، ومن هنا وجب التعامل معها باعتبارها إحدى حقائق الواقع الاعلامى الذى لابد من فهمه إذا أردنا تحسينه وتطويره.

والمعادلة التى تفشل أغلب هذه الصحف فى حلها هى تلك التى تتعلق بتحقيق التوازن بين ارضاء الحاكم وارضاء

المواطن. ومن يوالى قراءة هذه الصحف لابد أن يصل إلى نتيجة مفادها ان ما يمكن أن يرضى الحاكم لابد أن يثير استياء المواطن وما يمكن ان يرضى المواطن لن ينال رضا الحاكم. وهى بالتأكيد نتيجة خاطئة أدت إليها مجموعة من الفرضيات الخاطئة التى تجعلها الصحف الحكومية قاعدة لانطلاقها. إذ لاشك ان هناك منطقة ما يمكن أن يلتقى عندها أبناء الوطن الواحد حكاماً ومحكومين، ولكن الصحافة الحكومية لا تجتهد فى البحث عن هذه المناطق التى يمكن أن تنقذها من أزمتها الدائمة.

انها من موقع وظيفى روتينى يمنح ولاءه المطلق للحاكم تسرف الصحيفة الحكومية فى كيل الشكر والثناء للحاكم طوال الوقت ودون أن تجهد نفسها فى البحث بصدق ومثابرة عما يستحق الثناء، وكثيرا ما نراها تصفق وتهلل لصدور قانون تعسفى أو تعطيل لاحدى مواد الدستور أو خرق لنصوصه وتتحدث عنه وكأنه انجاز حضارى وعمل جليل لصالح الشعب بدل أن تكتفى بتقديمه تقديما يتفق ومهمتها الاعلامية واعتبار هذا القانون التعسفى أو الخرق الدستورى اجراء طارئا يجب أن ينتهى بانتهاء اسبابه.

انها فى الوقت الذى تتخذ فيه هذا الموقف المفرط فى تأييده للحكومة إلى حد الكذب والافتراء أحياناً، تنسى كل شىء عن احتياجات المواطن وهمومه وقضاياه فتعامله باستفزاز ودون احترام لعقله أو مراعاة لمشاعره.

وبطبيعة الحال فان احداً لا يطالب الصحيفة الحكومية أن تكون أكثر مما هى مؤهلة له.. لا يطالبها أن تكون شيئا آخر غير صوت الحكومة، المعبرة عن سياستها، المؤيدة لها فى قراراتها، المتفانية فى الدفاع عن مواقفها، لا يطالبها أن تتكلم بلغة المعارضين أو أن تتحول إلى منبر من منابر حرية الرأى والتعبير ولكن ما نطالبها به هو حد أدنى من الصدق والموضوعية والأمانة الصحفية فى نقل الأخبار. وبرغم ان هذه الصحف غالباً ما تسمى نفسها الصحف القومية تمييزاً لها عن الصحف التى لاتصدرها الحكومة، وغالباً ما تضع شعاراً تحت عنوانها تقول فيها إنها الناطقة باسم الشعب فالقراء يعرفون ان هذه التسميات والشعارات واللافتات مجرد كلمات خالية من أى محتوى أو دلالة ولذلك فإن أحداً لا يطالبها بأن تطبق الشعارات التى ترفعها. إننا نقول أنه مهما كانت المساحة شاسعة بين بعض الحكام والمحكومين

فإن هناك هامشاً للحركة فيما يخص التعبير عن احتياجات المواطنين ومطالبهم وشكواهم وانها باجتهاد بسيط يمكن ان تحقق رضا المواطن بالاضافة إلى رضا الحاكم وتمد جسور الثقة والتفاهم مع القراء وتحتفظ لنفسها بحد من المصداقية يؤهلها لأداء رسالتها فى تحقيق التواصل بين المواطنين والحكام.. ولعل بعض الصحف الحكومية قد افلحت فى اداء هذه المهمة، فلكل قاعدة ـ كما يعلم القراء ـ استثناء.

***

كان احتمالاً مرعباً ذلك الذى تصور صديقنا الشاعر والكاتب خالد محادين حدوثه، وهو أن يأخذ المصححون فى الصحيفة إجازة لمدة أسبوع كاختبار نعرف من خلاله مدى اتقان كتابنا، كباراً وصغاراً، للغتهم العربية.

أقول ذلك لأننى على يقين بأن أغلب كتاب الصحيفة بمن فيهم خالد محادين سوف يمتنعون عن الكتابة ذلك الاسبوع. واعترف هنا أننى شخصياً لا أتصور أن يذهب المقال الذى أكتبه إلى المطابع دون مراجعة من لغوى متخصص. وبرغم أننى أحاول دائماً مراجعة معلوماتى اللغوية، والاستيلاء على كتب المقرر اللغوى التى يقرأها

أطفالى لاستذكار ما سقط من ثقوب الذاكرة، وتدارك ما كنت أرتكبه من أخطاء، وكتابة نص نظيف منها، إلا إننى لا أستطيع أن أنام هانئ البال إلا إذا وجدت معلم لغة يعتمد النص الذى كتبته، وأعتقد أن هذا هو حال عدد كبير من الكتاب ممن فاتهم الالتحاق بكليات اللغة العربية. ولم استغرب عندما ذهب المهنئون إلى بيت نجيب محفوظ يوم فوزه بالجائزة فوجدوا أن الكتاب الذى كان يقرأه كتاب فى قواعد اللغة العربية. والذى يتابع البحوث التى ينشرها الدكتور على شلش لمؤسسى النهضة الفكرية الحديثة فى الوطن العربى سوف يندهش لما يعثر عليه الباحث من أخطاء نحوية لكتاب عمالقة فى حجم العقاد وغيره. وكان معروفاً عن طه حسين أنه يأتى بمن يراجع معه معلوماته اللغوية ويقرأ له كتب النحو. وكل من اشتغل فى مطابخ الصحافة الادبية يدرك مدى ما يقع فيه الكاتبون من أخطاء مهما كانت تخصصاتهم قريبة من الميدان اللغوي.

وأنا لا أعرف لغات أخري، سوى اللغة الانجليزية، يمكننى أن أقارن بينها وبين اللغة العربية فى مجال النحو وقواعد اللغة، وقد كتبت بهذه اللغة بعض المقالات وألقيت

بعض المحاضرات وأنجزت أطروحة فى مجال الأدب، ولم يكن »النحو« مسألة تقلقنى أو تشغلنى كما يحدث عندما أكتب باللغة الأم، فالنحو فى اللغة الانجليزية، وأنا اتحدث هنا عن الاستعمال العام لا عن القضايا التخصصية، سهل وميسور لكل من نال حظاً من التعليم المبدئي، وبإمكان أى صبى أكمل دراسته الابتدائية أن يكتب نصاً خالياً من الأخطاء النحوية. ولا أحد يجادل فى أن اللغة العربية هى من أكثر لغات العالم غنى وثراء، وهى لغة سايرت التطور واستوعبت التحولات الفكرية والعلمية التى رافقت مختلف المراحل التاريخية، ولكن قواعد نحوها وصرفها تحتاج إلى جهد علمى كبير من أجل تبسيطها وتيسيرها، خدمة لهذه اللغة ولأهلها فى عصر لم يعد يتيح ترف أن يكون الإنسان عالماً لغوياً قبل أن يدرس العلوم الأخرى، وإذا كان أسلافنا من مثقفين وعلماء أكثر اتقاناً للغة من هذه الاجيال، فما ذلك إلا لأنهم كانوا يصرفون جزءاً من أعمارهم فى دراسة اللغة وأسرارها فقد كانت ثقافة عصرهم، ثقافة فقه، وبيان، وكلام. ثقافة فى أغلبها دينية وأدبية، أما اليوم وبعد ما حدث فى العالم من ثورة معرفية نقلت الثقافة والعلوم والمعارف إلى

هذه المجالات التخصصية باتساعها وتنوعها فإن كل هذه القضايا صارت تحتاج إلى معالجة جديدة، وإلى لغة جديدة فى الخطاب تختلف عن لغة رمونى بعقم فى الشباب وليتني.. التى كان يتكلم بها أسلافنا الأجلاء.

***

كثيراً ما نقرأ كتابات فى الصحف تعبر عن سخط وتذمر أصحابها من هذه الاهمية الكبيرة التى يوليها الرأى العام ووسائل النشر والاتصال بحادث سير تعرضت له إحدى الفنانات، أو بأحاديث وتصريحات لاعب كرة اعلن اعتزاله.

ويرى اصحاب هذه الكتابات فى الاهتمام بالقضايا الصغيرة والهامشية تلهية للجماهير وانصرافاً عن معالجة القضايا الاساسية فى الحياة وهروباً من مواجهة المشاكل الحقيقية للمجتمع واستغراقاً فى مواضيع تافهة لا تخدم الحياة العامة ولاتقدم مردوداً نافعاً يسهم فى تحسين الاحوال المعيشية، ويعتبرون ان هذه الضجة التى تجعل من حادث مثل هذا حديث الناس وموضع تفكيرهم واهتمامهم، تركيز غير برئ على الجانب العابث فى الحياة وتغليبه على

الجوانب الأخرى، خاصة عندما يحدث هذا فى بلاد الكثافة السكانية من اقطارنا العربية بكل ما يواجه الوطن من مشاكل اقتصادية مستفحلة تحتاج إلى اليقظة والتوعية واستنفار عقل الأمة لكى تواجه به التحديات الخطيرة، وبرغم اننى أفهم غيرة هؤلاء الكتاب واشاركهم الحرص على ان تبقى مشاكل الوطن الكبرى فى بؤرة التفكير والاهتمام، إلا إننى لا اشاركهم الرأى فى أن ذلك يأتى خدمة لمخطط يسعى لعزل الناس وتتفية القضايا الكبيرة وتهميشها، بل على النقيض من ذلك فأنا أرى ان الاهتمام باللاعب الذى وصل إلى آخر الشوط أو الفنانة التى تعرضت لحادث السير إنما هو دليل صحة وعافية، وهو اهتمام لا يصدر إلا عن نفسية سوية ومزاج لم تفسده نشرات الأخبار السياسية، وسأكون أكثر قلقاً على العافية النفسية للمجتمع لو أن حياتنا خلت من كل هذه القضايا التى ينشغل بها الرأى العام، إذ معنى هذا الانشغال أن المواطن فى بلادنا مازال لم يجعل من حياته ارتهاناً كاملاً للمشاكل المعيشية، ومازال قادراً على الاحتفاظ بهامش من حياته وجزء من روحه وقطعة من قلبه لم تمضغها وتسحقها طواحين المشاكل المعيشية والكوارث السياسية، لأن حجة

هؤلاء المنتقدين أن هناك فى أوطاننا من المشاكل والهموم ما يغنينا عن ترف هذا الحديث، بعد أن ارتفع ثمن الرغيف، واستفحلت أزمة الاسكان وتضاعف حجم الديون وضاعت القيمة الشرائية للجنيه، فإلى مثل هذه القضايا يجب أن ينصرف الاهتمام. والمغالطة فى هذا المنطق أنه لا يرى المواطن إلا نبتة لا تتغذى ولاتعيش إلا على الكوارث والهموم والأزمات والمشاكل، وينسى أن الإنسان مهما كان مأزوماً ومسحوقاً ومطحوناً لابد أن يحقق انسانيته بالارتفاع فوق هذا الانسحاق والتأزم فيتابع أخبار النجوم ويحضر المباريات الرياضية ويشاهد البرامج الاستعراضية فى التليفزيون ويقرأ القصص ويذهب إلى الشواطئ فالحياة ليست مجرد وجه قاتم لا إشراق فيه، والحديث عن الفنانين ولاعبى الكرة ليس بالضرورة تعطيلاً للتفكير فى قضايا العملة والديون وتحديد النسل وتنظيم الأسرة، فالورق مازال لم ينفذ من الدنيا بعد، والصحف التى تصدر فى الوطن العربى تملك براحاً يتسع لنشر كل الآراء والافكار ومعالجة كل القضايا وارضاء كل الاهتمامات. واصارحكم الحقيقة بأننى إذا ما وجدت فى صحيفة الصباح تحقيقاً عن تلوث المياه التى

نشربها فى بيوتنا واستجوابا صحفيا مع الفنانة شريهان فإننى سأذهب مسرعاً وسعيداً لقراءة ما تقوله الفنانة شريهان متأملاً صورتها متلهفاً لمعرفة مشاريعها الفنية بعد ان استعادت صحتها، مؤجلاً النظر فى الموضوع الثانى لكى لا يفسد مزاجى ويعكر صفو أفكارى مع بداية النهار.

***

برغم أننى أحمل صفة صحفي فى جواز سفرى إلا اننى عشت مجاوراً للصحافة ولست واحداً من أهلها. والصحافة مهنة تطبع الإنسان بطابعها وتلون حياته وسلوكه بألوانها وتربطه كعرائس الاساطير بشعرها فلا يستطيع أن يترك هذه المهنة أو يتواءم مع أى مهنة أخرى حتى لو بقى جائعاً وعاطلاً ومشرداً.

ورغم ما طرأ على التقنيات الصحفية من تقدم مهول فإن هذا التقدم لم ينقص من الاعباء التى يتحملها الصحفي، وانما اضاف اليها أعباء أخري، فهو مطالب فى هذا العالم الذى يدور مع دورة الأقمار الصناعية أن يمضى راكبا لاهثاً ويعمل بوتيرة تتفق مع سرعة هذه الدورة. وبعكس المهن الأخرى التى يمكن ان نتعامل معها دون أن تعتدى على

الجانب الشخصى من حياتك وتأخذ منك ساعات العمل التى تريدها ثم تترك لك هامشاً لاختيار مواعيد نومك وصحوك وساعات ترفيهك وراحتك، فإن مهنة الصحافة لاتعرف هذا كله، انها تتدخل فى حياتك فتصيغها لك بما يناسبها ويتفق معها، فأنت لا مجال لك لاختيار ساعات نومك ويقظتك أو مواعيد الغذاء أو العشاء أو أوقات الترفيه والراحة وأيام العطلة والاجازة، ولا أدرى إذا ما كانت الصحافة تحدث تغييراً فيزيولوجيا لدى الناس الذين يختارونها مهنة لهم، فتضيف شيئاً مميزاً إلى سحناتهم يجعلنا ندرك عندما نراهم انهم أبناء هذه المهنة، فهو مجرد احساس أحس به وأنا اعايش اصدقائى الصحفيين دون أن املك أى دليل على اثباته، كما لا استطيع تحديد طبيعة هذا التغيير أو اعرف على وجه اليقين المدة التى يجب ان يقضيها الشخص عاملاً بالصحافة حتى يظهر على وجهه هذا التغيير، وإذا اختلفنا حول هذه التأثيرات العضوية فلن نختلف حول التأثيرات النفسية التى تلحق العاملين بالصحافة وتجعلهم يختلفون عن بقية البشر. ولعلك التقيت بمثل هذا الصحفى الذى يتحدث عن اللحظات السعيدة فى حياته فاستبشرت خيراً بهذا الحديث

واستمعت باهتمام إلى كلماته ظناً منك أن لحظات السعادة تعنى لديه ما تعنيه لديك، إلى أن اكتشفت ان لهؤلاء الصحفيين قاموساً يختلف عن القاموس الذى نستعمله فى تعاملنا وأن السعادة بالنسبة لهم تختلف عن سعادتنا، فهو يتحدث بغبطة وفرح عن ضربات الحظ التى صادفته عندما سافر إلى الهند، والسماء التى فتحت له أبوابها لأنه ما أن امضى يوماً واحداً فى الهند حتى نكب أهل تلك البلاد باغتيال زعيمتهم انديرا غاندي، فكان هو جاهزاً لتغطية الحدث وتحقيق سبق صحفى ويحدثك بحماس عن مناسبة أخرى ابتسم له فيها الحظ واشرقت فى سمائه أنجم السعد والنجاح لأنه ما أن وصل إلى اسبانيا حتى وقعت أكبر كارثة طيران فى الدنيا عندما ضربت طائرة جامبو طائرة أخرى مثلها فكان هو جاهزاً لإحصاء عدد الضحايا.

وكدليل على ذلك انظر إلى اسلوب تعامل الصحفيين فى الغرب مع السياسيين وكيف يصنعون مجد أحد السياسيين عندما ينشرون له الصور وينسبون إليه الحكم والفكاهات ويقومون بتسويقه إلى الرأى العام المتعطش إلى الوجوه الجديدة، ثم يبدءون بعد ذلك فى تحطيمه ونشر الفضائح عنه

تمشياً مع قوانين الاثارة والتشويق. وبحثا عن مزيد من الاثارة يذهبون للتفتيش عن الفندق الرخيص الذى قضى به نهاية الاسبوع. ولعل سبب هذا التغيير الفيزيولوجى الذى يصيب انوفهم فتبدو مستديرة حمراء جاء نتيجة وقوفهم الطويل فى ليالى البرد والشتاء أمام الفنادق الساحلية التى يزورها السياسيون فى نهاية الاسبوع رفقة نساء لا يشبهن زوجاتهم.

***

منذ أعوام كثيرة مضت شاهدت أثناء زيارة إلى تركيا تقليداً صحفياً أعجبنى فعدت أدعو إلى تحقيق شيء مثله على مستوى اتحاد الصحفيين العرب، ولأن دعوتى تلك لم تجد صدى فى ذلك الوقت، ولأن الفكرة مازالت لم تفقد بتقادم الأيام وجاهتها، فقد أردت اليوم ومن فوق هذا المنبر الأكثر انتشاراً أن اعود إلى طرح الموضوع مرة أخري.

وخلاصة ما رأيت فى تلك الزيارة هو أن الصحف اليومية الصادرة فى تركيا، وقد كانت كثيرة فى تلك الأيام، تتوقف جميعها عن الصدور فى عيد الأضحى ليتولى اتحاد الصحفيين اصدار صحيفة واحدة بدلاً منها اسمها بيرام (أى

العيد) تحتوى على أهم الملامح والأبواب التى تتميز بها تلك الصحف التى تعطلت بمناسبة عيد الأضحى، صحيفة يلتقى على صفحاتها أشهر كتاب الصحف التركية وتقدم خلاصة مركزة لأهم وأشهر المواد الصحفية التى تعود ان يلتقى بها القراء فى الصحف الأخرى.

إنهم يجعلون من العيد فرصة للتعبير عن موقف موحد، يرمزون به إلى وحدة الوطن، ولذلك فإن الكتاب من صحف اليمين واليسار، المحافظين والاشتراكيين ينسون خلافاتهم ويلتقون فوق منبر صحفى واحد هو صحيفة بيرام.

لا أدرى إن كان هذا التقليد الجميل لازال مستمراً، فقد عصفت بتركيا خلال الاعوام الماضية أعاصير وعواصف وأهوال أطاحت بأكثر التقاليد عراقة وجمالاً، ولكننى أتمنى أن أرى عملاً كهذا يتحقق على مستوى صحافتنا العربية وأن يرى القارئ العربى فى عيد الاضحى القادم صحيفة اسمها العيد تصدر خلال أيامه الأربعة يشارك فى تحريرها كبار الصحفيين العرب وتحتوى على أهم الأبواب والزوايا الثابتة التى يتابعها القراء فى صحف مثل »الشرق الأوسط« والأهرام والسفير والنهار والوطن والقبس والاتحاد، والبيان

والمدينة والعلم والعمل وتشرين والثورة والجمهورية والفجر الجديد. وأن يخصص ريعها لإنشاء صندوق لإعالة أسر الشهداء الذين سقطوا على طريق الكلمة بدءاً من النقيب رياض طه إلى عميد الرسامين الصحفيين ناجى العلي.

ستحقق صحيفة العيد رقماً قياسياً فى التوزيع وستكون عملاً جليلاً يعبر به الكتاب والصحفيون عن حقيقة الوحدة التى تربط بين أبناء هذا الوطن برغم العسس وحراس الحدود.

***

هذا المرشح الرئاسى الأمريكى الذى خسر السباق.. ما الذى سيحدث له الآن؟

فجأة تنطفئ من حوله الأضواء الساطعة، وتطوى السرادقات الكبيرة، وتتبخر الحشود الهائلة من البشر الذين يهتفون باسمه ويرسلون إليه صيحات الثناء والاعجاب والتأييد، وتختفى من أمام بيته آلات التصوير التى كانت تتابعه ليل نهار وتنقله من مكانه وتضعه فى قلب العالم لتتحول الكرة الأرضية إلى كرة من البلور الشفاف لا نرى فيها إلا وجهه ووجه منافسه، حتى أصبح اسمه صنواً لأسماء

أفراد العائلة فى كل بيت من بيوتنا، واحتل لأشهر شاشات التلفاز فى ديار نومنا وجلوسنا وأقام بها لا يغادرها طوال ساعات الارسال، واحتل واجهات الصحف والمجلات التى نقرأها بأية لغة من اللغات حتى حفظنا كل شيء عن حياته وصارت زوجته وأولاده وأصحابه جزءاً من حياتنا، نصبح ونمسى على ذكر أخبارهم وميولهم وطباعهم وهوياتهم كل هذا انتهى الآن وانتهت معه تلك القوافل الصحفية التى كانت ترافق رحلاته وتنقلاته وتتسقط أخباره وتسجل أحاديثه وهمساته وتستفيض فى ذكر أسلوبه فى العمل وأسلوبه فى النوم واسلوبه فى تناول الطعام أو تناول الدواء. كل صغيرة وكبيرة فى حياته كان هناك من يتربص بها ويقوم بتسجيلها كما يقوم بتسجيل تاريخ حياته بكل تفاصيله وجزئياته مبتدئاً من جده الذى كان يعمل تاجر خردة فى اليونان. وما ان خسر الرهان حتى زهد العالم فى معرفة أخباره أو هواياته أو قراءاته أو أخبار زوجته وأطفاله بمثل ما زهدت فى ذلك قوافل المصورين والصحافيين الذين حملوا أقلامهم وآلات تصويرهم وتسجيلهم وانصرفوا عنه.

لقد انتهى المهرجان الذى صنع منه وجهاً يملأ شاشة بعرض الأفق.

وعليه أن يعود إلى الظل، مجهولاً، ومغموراً مرة أخري، ويلتحق بركب من سبقوه من متنافسين على الوصول إلى البيت الأبيض ممن عاشوا تحت الأضواء بضعة أيام ثم تواروا بعد سقوطهم فى الانتخابات إلى زوايا الاهمال والنسيان. فمن يذكر الآن جولد ووتر أو جورج ماكجفرن أو وولتر مونديل الذين شغلوا العالم بمثل ما فعل هذا المرشح الأخير ثم عادوا مرة أخرى إلى الظلام.

ولا أستطيع أن اتكهن بمدى شعور انسان يعيش أياماً فى قلب الدنيا وتحت هذه الأضواء الساطعة المبهرة، مستقطباً أنظار شعوب العالم بأكملها، ثم فجأة يجد نفسه وقد عاد انسانا مغموراً لن تهتم حتى جريدة قروية بنقل أخباره أو تصريحاته.

كل ما أستطيع أن أغامر بقوله ان حياته لن تعود كما كانت قبل أن يجرب الحياة فى هذا الأتون من المجد والشهرة والأضواء، سوف يبدو كل شيء فى حياته باهتاً، ماسخاً، لاطعم له ولالون ولا رائحة، كل المناسبات الصغيرة التى

يفرح بها الناس ويصنعون منها أعياداً يبتهجون بها سوف تبدو بعينيه بائسة وتافهة لا تستحق أى فرح أو انفعال، فما أهمية أن يأتى إليه بعض جيرانه يصطحبون زوجاتهم لتهنئته بعيد الميلاد ويتحملون عناء نشر تهنئة له مرفقة بصورة الاحتفال فى الصحيفة المحلية، وهو الذى كان ذات يوم موضع احتفال شارك فى حضوره آلاف الملايين من البشر وكانت صورته مثل شمس النهار تشع فوق الكرة الأرضية بكاملها.

إن ذلك المهرجان بقدر ما اعطاه لحظات مثيرة مبهرة، فقد افسد قدرته على الاستمتاع بمباهج الحياة الصغيرة، وسيظل يقارن متعة أى شيء يلاقيه فى الحياة بتلك المتعة التى نالها فى ذلك المهرجان الاستثنائى الذى لن يحظى بشيء يماثله فيما تبقى له من أيام.

***

منذ أعوام مضت كانت محطة الارسال التليفزيونى فى أحد اقطارنا العربية تستهل نشرات أخبارها بخبر واحد يتكرر كل يوم هو خبر الحمام الذى يأخذه السيد الرئيس فى حوض سباحة القصر. ومهما كان ذلك اليوم مملوءاً بالأحداث

الخطيرة والوقائع التى تهتز لها الدنيا فقد كان أول خبر وأهم خبر يجب أن يشاهده المواطن على الشاشة الصغيرة هو حمام السيد الرئيس. وهذا الكلام ليس من باب المبالغة فى الوصف، وليس حديثاً من أحاديث العبث واللامعقول، وإنما هو واقع كان مواطن ذلك القطر العربى يشاهده منقولاً على الشاشة كل مساء ويضطر إلى قبوله وهو صابر صامت.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هذا الرئيس لم يكن صاحب مواقف وطنية وبرامج اصلاح وتنمية نفذها باجتهاد فأخطأ وأصاب كما يفعل كل البشر. فهذا موضوع آخر سيتولى التاريخ قول الكلمة الفصل فيه.

اننى هنا اتحدث عن الجانب الذى يتصل بتعامله مع وسائل الاعلام باعتباره يمثل حالة مرضية ويقدم مثلاً صارخاً لمدى اجتراء بعض الحكام على شعوبهم ومبلغ ما وصل إليه تفكيرهم لكيفية استخدام هذا الانجاز العلمى والعقلى بحيث يحيدون به عن مهمته الحضارية فى التوعية والتثقيف ويحيلونه إلى أداة إذلال للناس وتسفيه لعقولهم ويجعلون منه مناسبة للتنفيس عن عقد الاستعراض وجنون العظمة.

لقد ازيح هذا الرئيس عن منصبه لأسباب كثيرة أخرى لا علاقة لها بحمامه اليومى الذى كان يأخذه أمام آلات التصوير ويعرضه كل يوم على الناس. ولكننى على ثقة من أن الشعب كله تنفس الصعداء عندما شاهد لأول مرة نشرة أخبار مرئية لا يكون الخبر الأول والرئيس فيها هو حمام السيد الرئيس. ولعل بعض القراء لا يرضيهم إننى أضرب مثلاً برئيس تم عزله وانتهى عهده ولم يعد له خطر أو شأن ويعتبروننى افعل ذلك تقية وتجنبا للحديث عن أخطاء حكام مازالوا يتربعون على سدة الحكم أخشى بطشهم وبأسهم، ولاشك أن الحديث عن أخطاء رئيس خرج من الحكم أكثر أماناً من الحديث عن رئيس لم يخرج بعد، هذا صحيح، ولكن ما ليس صحيحاً هو أن الحاكم إذا اقصى عن منصبه وجب التستر عليه والامتناع عن كشف اخطائه وجرائمه. وكأن الحصانة التى تمتع بها طوال عهده الذى استمر لأكثر من ثلاثين عاماً لا تكفى حتى نضيف له حصانة أخرى بعد خروجه من الحكم. ان الحديث ليس حديث تذكير بمثالب الحكام، إنه تنبيه لخطورة هذا المنطق الاعلامى الذى

يستعمله بعض الحكام بطريقة مشوهة ممسوخة فيسيئون إلى شعوبهم بمثل ما يسيئون إلى أنفسهم.

***

لا نملك رصداً دقيقاً لاتجاهات القراء فى العالم العربى ومعرفة ما يقبلون عليه من قراءات أو ما ينفرون منه، وحتى لو أجرينا مثل هذا المسح فإن الصورة ستبقى ناقصة لأن القارئ محكوم بمجموعة من العوامل، أهمها أنه لا يستطيع الحصول على ما يريده من كتب نتيجة لما تقيمه سلطات الرقابة ومكاتب تحويل العملة من حواجز وعقبات أمام تداول الكتاب. وكل ما يمكن فهمه من بعض الناشرين هو أن الشعر هذه الأيام بات لا يلاقى ذات الاقبال الذى كان يلاقيه منذ سنوات مضت، وإن قراء اليوم أكثر اقبالاً على قراءة الاعمال الروائية والكتب التاريخية وما يتصل بالتراث والمذكرات والسيرة الذاتية. وإن صدق هذا القول فمعنى ذلك أن هناك أزمة يعانى منها الشعر على مستوى التواصل والعلاقة مع الجمهور، وهى أزمة لا تكمن فى الشعر وحده، إنها تكمن أيضاً فى هذه المرحلة التاريخية التى نمر بها والتى خلقت مناخاً عاماً لا يصلح لقراءة الشعر، وليس معنى

ذلك أن الشعر يريد هناء واسترخاء واستقرارا نفسيا يأتى كنتيجة لاستقرار الحالة السياسية والاوضاع الاجتماعية لكى تتأكد حاجتنا إليه، فلقد أثبتت التجارب بأن مراحل النضال والجهاد بحاجة أيضاً إلى الشعر الذى يذكى الهمم ويضئ النفوس ويكون زادا روحيا ووجدانياً للمناضلين، ولم يكن الشعر ليحظى فى تاريخنا الأدبى بهذه المكانة الرفيعة إلا لأنه خاض معارك تأكيد الذات وترسيخ الهوية وأسهم فى تربية الوجدان المشترك بمثل ما أسهم فى بلورة القيم الحضارية لهذه الأمة. إذن فالقضية ليست قضية استقرار سياسى أو غياب هذا الاستقرار، إنها قضية مرحلة تاريخية عامرة بالتناقضات الداخلية والمؤامرات الخارجية والصراعات الدولية التى جاءت كنتيجة للثورة النفطية.. مرحلة تاريخية تميزت بعدم وضوح الاهداف الكبيرة التى تجتمع حولها الأمة كما كان الحال خلال مراحل التحرير الوطنى ولهذا غمرت الفوضى الآراء والأفكار وانتشرت الفتن والنزاعات الداخلية وصار الأخ يرفع السلاح فى وجه أخيه عربياً كان أو مسلماً، وننتظر حرباً نعيد بها تحرير الأرض وتصفية الحساب مع أعدائنا التاريخيين فإذا بالحرب التى تتفجر ضارية عنيفة هى

حرب تتفجر بين بادين اسلاميين، وخلال هذا كله تقوضت الكثير من الاحلام، وغمر التعتيم الكثير من الاهداف الكبيرة، وفقدت الشعارات مصداقيتها، وتم تكريس الناطق الرسمى كممثل وحيد للفكر والثقافة، وأخرج المبدع الحقيقى من دائرة الفعل والتأثير، وانتج كل هذا مناخاً من الاحباط والشعور بالخيبة والاحساس بلا جدوى الاشياء، وبرغم بوادر الأمل التى صارت تلوح فى الأفق منذ أن بدأ أطفال الحجارة يسطرون ملحمة النضال والثورة داخل الأرض المحتلة، ويفرضون نوعاً من التضامن العربي، ومنذ أن بدأت تهل البشائر بانتهاء حرب الخليج إلا أن الصورة مازالت لم تفقد قتامتها، وانعكس هذا الحال على منتجى الشعر أنفسهم الذين انقسموا بين شعراء الضحالة والغثاثة وبين شعراء الجودة التى أفسدتها أمراض العظمة وتضخيم الذات وتضاءل هامش الحرية الذى يسمح بالنقد والتعبير الصادق إلى أن وصل حده الأدنى، وانطفأت المشاعل الثقافية التى اضاءت قليلاً فى بيروت وسقط كل شيء فى ظلام الفتنة والحرب الأهلية وهاجرت أغلب المنابر الصحفية والثقافية إلى خارج الوطن، وفى حين انكفأ شاعر على ذاته رافضاً أى تواصل مع الدنيا

التى حوله، التحق شاعر آخر بمكتب الناطق الرسمى وقرر شاعر ثالث الانتحار المادى والمعنوي، وظل شاعر رابع يقاوم وحده الاعصار وصدأ السنين، زد على ذلك أن اشكالاً جديدة نسبياً على تراثنا الأدبى مثل »الرواية« استوعبت الكثير من أدوات الشاعر وأسلوبه وصارت قادرة على احتواء هذه التناقضات والتعامل مع الواقع الجديد وتلبية احتياجات القارئ بأكثر ما تستطيع القصيدة فتراجع بسبب ذلك الاقبال على قراءة الشعر وفقد الشاعر العربى مكانته التى ظل يحتلها على مدى القرون.

***

دونما تردد أو إبطاء أجبت قائلاً:

ـ التمثيليات التاريخية.

كان ذلك رداً حول سؤال ما أراه صالحاً لمشاهدة أطفالنا فى برامج الاذاعة المرئية. وكان دافعى إلى هذه الاجابة سبب آخر غير الاسباب التى ترد إلى الذهن عند الحديث عن مثل هذه التمثيليات، فهى بلا شك تستخدم اللغة العربية الفصيحة أداة للحوار مما يساعد فى القضاء على آفة الانفصام اللغوى التى يعيشها الطفل العربى عندما نغرس فى

وجدانه جمال التعبير باللغة العربية الفصيحة منذ مراحل العمر المبكرة، ثم إن هذه التمثيليات بجوار قيمتها الترويحية والجمالية فهى تقدم قيمة معرفية، ومعنى ذلك إنها إثراء واغناء لحصيلته العلمية بما تسرده من أحداث ووقائع تاريخية، وهى فوق هذا وذاك وسيلة ناجحة لتعميق احساسه بالانتماء عندما يتصل موضوعها بالتاريخ العربى والفتوحات الإسلامية، فهى إذن مادة وجب تفضيلها على مواد التلفاز الأخرى تحقيقاً لهذا الهدف من الاهداف التربوية، ولكننى لم أكن أفكر فى هذه الاسباب عندما بادرت بإبداء رأيي، أن هناك سبباً آخر أكثر اتصالاً بالجوانب العملية لتربية الأبناء، وهو أن هذه التمثيليات هى المادة الوحيدة التى يمكن أن يشاهدها الطفل العربى ويرى فيها بشراً يتكلمون ويتحركون على الشاشة وهم لا يمسكون بين أصابعهم أو يعضون بين شفاههم ذلك الشيء الذى صار مكملاً لأى كائن تليفزيونى والذى اسمه السيجارة.

فلقد امتحنتنا الاقدار بعدد من المخرجين والممثلين الذين لا يستطيعون تقديم مشهد فى تمثيلية عصرية إلا إذا ملئوا الشاشة الصغيرة بدخان سجائرهم، يعبرون بها عن

بهجتهم بمثل ما يعبرون بها عن بؤسهم، وكأن التمثيل لا يستقيم إلا بامتصاص السجائر والمشهد يفقد قيمته الجمالية إذا بقى خالياً من المنافض.

ولاشك أن هؤلاء الممثلين والمخرجين يجدون أنفسهم فى مأزق شديد الحرج عندما يضطرون إلى تقديم تمثيليات عن موسى بن نصير أو طارق بن زياد أو خالد بن الوليد حيث لا مجال للاعتماد على السيجارة فى الاخراج والتمثيل.

إننى اتكلم عن التمثيلية باعتبارها أكثر تأثيرا فى المشاهد الصغير من البرامج الأخرى، فهو غالباً ما ينظر إلى نجوم الشاشة الصغيرة باعتبارهم مثله الأعلى الذين يحب تقليدهم والاقتداء بما يفعلون، ولكن ليس معنى ذلك أن بقية البرامج أفضل حالاً أو أكثر حرصاً على مصلحة المشاهدين.

وكما يحدث فى بعض الأماكن التى تخصص ركناً للمدخنين وآخر لغير المدخنين فاننى اقترح على اتحاد الاذاعات العربية أن يتولى تقسيم العمل فى هذه الاذاعات على نحو يجعل المدخنين يتفرغون للعمل بالاذاعة المسموعة حيث يبقى المجال أمامهم فسيحاً للتدخين كيفما شاءوا.

فى حين لا يظهر على الشاشة الصغيرة إلا من كان قادراً على هجر اللفائف البيضاء ومقاومة اغرائها.

***

هناك تعبير فى أمريكا يقول: Medium is the message وأستميح القارئ الكريم عذرا فى استعمال هذا التعبير الاجنبى الذى صار قولاً شائعاً يختزل معنى يحتاج تفسيره إلى بضعة أسطر، فهو يتعلق بالوسائط الاعلامية الحديثة وبأكثر هذه الوسائل قوة وخطورة وهيمنة على حياة الناس أى التلفاز، هذا الانجاز العلمى الذى بسط نفوذه على طابع الحياة العصرية منذ بداية ظهوره وهو يزداد مع الايام نفوذاً وسيطرة بفضل ما يواكب نموه من اختراعات حديثة كأجهزة التسجيل المرئى وأقمار الاتصال الدائرة فى الفضاء الكونى وأجهزة التحكم الآلى على المدى البعيد وغير ذلك من الأنظمة الالكترونية المسخرة لخدمته وتطويره، حتى انتقل هذا الجهاز الاعلامى من كونه وسيلة اتصال يستهدف تحقيق مقاصد وأغراض وخدمة أهداف ومضامين تتعلق بالاخبار والارشاد والترفيه والتوعية، إلى أن أصبح فى حد ذاته هو الهدف والمضمون، لم يعد مجرد أداة حيادية لنقل الآراء

والافكار والمعلومات ووسيلة لتعميق وعى الناس بالقيم والمثل والمفاهيم وانجاز حضارى يستخدمه الإنسان وفق حاجاته ورغباته وتوجيهاته وإنما صار هو الذى يتحكم فى توجيه الإنسان وصارت الآراء والافكار والمعلومات والمفاهيم والقيم تتلون بلونه وتذوب فى شخصيته ويصبح الجهاز هو الفكر والقيمة والرسالة والمفهوم، لأنه أكبر من أن يكون مجرد وسيلة لأداء مهمة أو نقل رسالة، ولعل طبيعة الحياة فى أمريكا ونظام العلاقات بها هو الذى أنتج هذا التعبير الذى يتفق مع ما أصبحت عليه شبكات الارسال المرئى هناك، حيث أضحى التلفاز مخلوقاً هائلاً مخيفاً مثل مخلوق فرانكشتاين الذى تمرد على صاحبه، فهو لا ينتمى إلا لذاته ولا يعترف بسيد إلا سيادته على نفسه. وهكذا أضحت الأداة ـ كما يقول التعبير الامريكى ـ هى الرسالة، فلتفقد الاشياء معناها حتى لو كان هذا المعنى مثالاً عالياً أو قيمة أخلاقية، ولتفرغ من محتواها حتى لو كان هذا المحتوى ثقافة أو فكرا، إذ لا معنى ولا محتوى إلا لما يريده الجهاز، هذا الجهاز الذى صار مرشحاً أن يتحكم لا فى آراء الناس وأفكارهم فقط وإنما أيضاً فى أمزجتهم وطبائعهم وأخلاقهم

وأسلوب معيشتهم، بحيث لا يبتهجون إلا بأمره ولا يحزنون إلا بعد مشورته، لا يأكلون إلا ما يريده السيد الجهاز ولا يشربون إلا ما يختاره لهم، لا يتزوجون إلا بإذنه ولا يرافقون إلا من اوصاهم بمرافقته، سوف يطيعونه فى كل صغيرة وكبيرة وسوف ينجبون أطفالهم حسب المقاييس والمواصفات التى يضعها لهم.

وبرغم ما تقوله استطلاعات الرأى العام حول الانتخابات الامريكية فإن عدسات التصوير التليفزيونى هى التى ستتولى اختيار الرئيس المقبل للولايات المتحدة الامريكية.

ولكن السؤال الذى يبقى عالقاً بحلوقنا نحن العرب هو لماذا يا ترى تكتسب هذه العدسات لونا صهيونياً؟

***

لا أدرى إن كان هناك كتاب استخدموا هذا التعبير وجعلوه عنواناً ثابتاً لأبوابهم الصحفية قبل أن يستخدمه الدكتور سعيد عبده ويجعله عنواناً لمقالاته الطبية الاسبوعية بأخبار اليوم منذ أعوام كثيرة مضت وهو خدعوك فقالوا

الذى كان يكتبه تحت اسم مستعار هو بقراط أشهر الأطباء فى عصر ما قبل الميلاد.

وقدم من خلاله جهداً موسوعيا فى مجال التوعية الصحية والطب الوقائى وازالة الاوهام ومحاربة الخرافات التى تتصل بالمرض والصحة. ولا أدرى إن كان هناك من تلاميذ الاستاذ عبده من اهتم بجمع هذه المقالات فهى مرجع يحتاج إليه كل انسان. وما يعنينى اليوم هو أن هذا العنوان الذى اختفى من صحافتنا مع رحيل الدكتور سعيد عبده يجب أن يعود لأن هناك فى حياتنا من وسائل التضليل والتمويه والخداع ما يوجب عودة هذا العنوان ليكون ملمحاً ثابتاً فى الصحافة التى تهتم بتوعية القارئ وفرز الحقائق من بين الاباطيل التى تدخل بيته مع الضوء والهواء. ولن أكون مبالغاً إذا قلت أن أكثر اساليب التضليل والتمويه جاءت إلينا مع هذه الثورة التقنية الاليكترونية فى مجال الاعلاميات، وبقدر ما جلبت هذه الثورة من توعية وترفيه وما اغنت به حياتنا من تدفق الاخبار والمعلومات فقد جاءت تستصحب معها أساليب جديدة فى التمويه واستلاب عقل المواطن وتكييفه مع برامجها والترويج لأفكار ليست دائماً ذات

مضامين هادفة أو تخدم قضايا التطور والبناء، لقد دخل التلفاز حياتنا دخولاً عاصفا مثيراً وكأنه ساحر يدخل إلى الساحة بألعابه وحيله وفنون الخداع التى يتقنها، تدعمه الاجهزة الاليكترونية والأقمار الصناعية، وتنشأ من حوله صناعات جديدة مثيرة، أطباق وهوائيات تملأ أسطح البنايات، وأشرطة وآلات تصوير وتسجيل تملأ أرفف الخزائن فى كل البيوت، وأسلاك وكوابل وأندية ودكاكين وشركات احتكارية ومطابع سرية وأخرى علنية لنسخ الشرائط والأفلام، بكل ما يتبع ذلك من وسائل الغش والتزوير والتهريب والأسواق السوداء، جالباً معه أساليب جديدة للترفيه وتزجيه الفراغ مع كميات كبيرة من الصخب والتمويه والاكاذيب، وهى جميعها تستدعى أن ترافقها حملة تثقيف وتوعية وملاحقة مستمرة تكشف الخبيث من الطيب، والزبد مما ينفع الناس، حملة توعية تقول للمشاهد خدعوك فقالوا فى التلفاز أو قالوا فى أشرطة الفيديو أو قالوا فى الاعلانات التى تقدمها الشاشة الصغيرة أو قالوا فى مسلسل دالاس أو داينستى أو غيرها من تمثيليات وبرامج تروج لقيم هجينة لا تتفق مع اخلاقيات مجتمعاتنا ومع ذلك نعرضها فى إذاعاتنا العربية. وليس

معنى ذلك إننى أسعى لخلق معركة بين الكتاب ومحطات الاذاعة المرئية أو أريد تحريض الصحافة ضد أجهزة الاعلام السمعية والبصرية، ولكننى أدرك أن لهذه الاجهزة اخطاراً جانبية ترافق كل ما تقدمه لنا من نفع وترفيه، وكثيراً ما رأينا اذاعات مرئية تتولى بنفسها تقديم برامج لكشف أوجه التضليل فى بعض المواد الاعلامية التى تقدمها، وأذكر ان احدى محطات التليفزيون البريطانية كانت تقدم برنامجا، لعله مازال مستمرا، عنوانه »هذه الحياة« مهمته هى متابعة شكاوى المشاهدين الذين ينخدعون فى البرامج الاعلامية أو المواد الاعلامية، وتتولى مقدمة البرنامج كشف هذه الشركات التى باعت انتاجها أو قدمت اعلاناتها الزائفة للمحطة، ولاشك أن مثل هذا البرنامج لن يستطيع أن يقول كل شيء أو يفضح كل شيء ولكنه يؤكد إلى أى مدى يدرك أهل هذه المحطات مدى خطورة ما يقدمونه للمواطن كل يوم، ويضع المسئولية كاملة على أجهزة التوعية والتثقيف مثل الصحافة لتتولى مسئولياتها فى مرافقة هذه البرامج بالنقد والتقويم وكشف المواد المغشوشة التى تقدم فى أغلفة من الأضواء والألوان.

***

كثرت فى الاعوام الأخيرة المهرجانـات التـى تقـام لعرض الأفلام السينمائية، ولا يمضى اسبوع أو اسبوعان إلا ونسمع عن مهرجان عالمى للسينما أقامته مدينة مـن مـدن العالم. وزعت خلاله الجوائز على الناجحين، واقيمت حفلات التكريم لكبار النجوم والمخرجين، ونقرأ اعلاناً عن فيلم ناجح ظهر منذ عام مضى فنكتشف انـه فـاز بجـوائز عشـرة مهرجانات فى هذه الفترة القصيرة.

وركضت المدن العربية لتنال حصتها من هذه الاعراس وصارت هى الأخرى تتبارى فى اقامة مهرجانات السينما العربية والعالمية وتتفنن فى رسم التماثيل وتصميم الأوسمة وزخرفة البراويز للشهادات التى تقدمها للفائزين من أهل هذا الفن الذين صاروا يحظون بمعاملة لا يحظى بها اصحاب فنون أخرى مثل المسرح والموسيقى والشعر والفنون الشعبية ممن كانوا ينافسون أهل السينما فى اقامة المهرجانات والاحتفالات. ولعل السر فى هذه الحظوة وغلبة

مهرجانات السينما على المهرجانات الأخرى، أن اقامتها أكثر يسراً وسهولة، إذ لا تقتضى مشاركة أى فيلم فى المهرجان سوى إحضار علبة تحتوى على شريط ومهما كان عدد المخرجين أو الممثلين الذين يصاحبون هذه العلب فلن يساوى عدد العناصر التى تضمها فرقة للمسرح أو الموسيقى أو الفنون الشعبية علاوة على ما تتمتع به السينما من شعبية تجعل للمهرجان ايرادا مضمونا يكفل سداد نفقاته أو جزء منها فهى ليست مجرد اسباب فنية وابداعية التى اوجبت اقامة هذه المهرجانات وإنما تدخل العامل الاقتصادى ليرفع حظوظا ويهبط بحظوظ فنون أخري.

إن أهم ما تقدمه هذه المهرجانات للسينما، علاوة على ما يحصده اصحابها من جوائز وحوافز، وما يحققه المتفوقون من اعتراف سريع بتفوقهم، هى هذه الدعاية المهولة التى تصاحب كل مهرجان، بحيث تتنافس الصحف والمجلات على تخصيص الصفحات التى تغطى احداثه وتقدم واجب الثناء على النجوم الفائزين بجوائزه وتزيين الاغلفة بصور النساء الفاتنات من بطلات أفلامه.

ولعل الهدف الاساسى لهذه المهرجانات التى ترافقها حملات الترويج والدعاية هو الصمود فى مواجهة الخطر الذى تمثله الاذاعة المرئية، فهذا الجهاز الذى جاء يرغم الناس على البقاء فى بيوتهم ويقدم لهم بديلاً مريحاً لمشاوير الذهاب إلى السينما، أحدث أكبر أزمة تعرض لها هذا الفن الذى هيمن بمفرده ولسنوات طويلة على سوق الثقافة السمعية والبصرية.

لقد قفلت قاعات كثيرة أبوابها قبل أن تلجأ إلى اسلوب آخر غير القفل لمواجهة المشكلة، كما فعلت قاعات السينما فى الغرب، التى قسمت إلى قاعات صغيرة بحيث تتولى عرض ثلاثة أو أربعة أفلام فى وقت واحد حتى تضمن جمهوراً يملأ مقاعدها، ثم جاءت صناعة الفيديو لتفتح للسينما اسواقاً جديدة تعوض بها بعض ما خسرته أمام التلفاز وتأتى الآن تقليعة المهرجانات لتكون إحدى المحاولات التى تبذلها السينما لاحتلال مواقعها القديمة وبسط نفوذها وهيمنتها مرة أخري. ولاشك أن هذا التحدى والتنافس الذى فرضه عليها التلفاز سيرغم السينما على أن تسعى لتطوير أدواتها وتنويع مصادر خبرتها والارتفاع باساليبها ومعالجاتها حتى تجبر

الجمهور على الخروج من بيوته لمشاهدتها. وإذا كان التلفاز قد سلبها شيئاً من شعبيتها فقد قدم لها خدمة أخرى عندما اعتمد عليها فى تغطية ارساله واعاد احياء افلامها القديمة والترويج لعناصرها ومبدعيها، وستبقى السينما برغم ذلك كله احدى الوسائل العصرية للترفيه ونقل المعرفة وصناعة الرأى العام ولقد استخدم الغرب هذه الوسيلة ومازال يستخدمها فى الترويج لأفكاره وأساليب معيشته ويدخل بها ميدان المعارك الفكرية والثقافية كسلاح فعال لبسط الهيمنة الثقافية.

وبرغم كثرة المهرجانات التى تقيمها أو الاخرى التى تسعى للمشاركة فيها، فإن السينما العربية لم تحقق أى حضور عالمي، ومازالت أفلامنا تحل ضيفا ثقيلاً على المهرجانات العالمية ولا تحظى إلا فيما ندر بالمعاملة الكريمة التى تحظى بها أفلام الشعوب الأخرى. وغالبا ما يطرد الفيلم العربى من قاعات العرض الرئيسية ليبحث لنفسه عن مكان هامشى خارج المهرجان ولم يحقق أى فيلم عربى حتى الآن توزيعا جماهيريا على مستوى عالمى بل ولماذا لا نقول انه حتى فى اسواق الوطن العربى فإن الهيمنة مازالت

للفيلم الاجنبى الذى أثبت عبر تاريخ طويل مواقفه المتحيزة ضدنا، والأدهى من ذلك ان دولا عربية مازالت تسمح لأسواقها أن تكون حكرا كاملاً للفيلم الاجنبى وشركات التوزيع الاجنبية. وفوق هذا وذاك فقد ظلت السينما برغم اهميتها مجالا لا يحظى بأى انتباه من مؤسسات العمل العربى المشترك وفى حين نرى دولا صغيرة محدودة الموارد والامكانيات تحقق تفوقا دوليا فى هذا المجال، فاننا للأسف الشديد لم نر مشروعا قوميا يستفيد من امكانيات ومواهب المبدعين العرب وينتج أفلاما تتكافأ مع طموح أمتنا ومكانتها فى الحضارة والتاريخ.

***

ونحن نشاهد مع اطفالنا أفلام الكرتون التى تصنع من ذلك الصراع الابدى بين القطط والفئران موضوعا لأقاصيصها، سرعان ما نجد أنفسنا نتعاطف مع الفأر ضد القط ونعجب بالمقالب التى يحيكها الفأر الصغير الضئيل

الضعيف لذلك القط القوى الذى ينفش شعره ويشهر براثنه وأنيابه باغيا افتراسه.

ومع أننا فى الحياة نكره الفئران وننصب لها المصائد ونتفنن فى ابتكار المبيدات التى تقتلها ونشن اعتى الحملات للقضاء عليها باعتبارها حيوانات كريهة مؤذية تنقل المرض وتلوث المكان، ونحترم القط ونتخذه أنيساً ورفيقاً يقيم معنا فى أماكن نومنا ونتولى اطعامه وتربيته ومداواته إذا مرض إلا اننا مع ذلك نجد أنفسنا نقوم بدور مناقض لما نقوم به فى الحياة، إذ نمنح الفأر مشاعر الحب والمؤازرة ونتحزب معه ونتبنى كل مواقفه المعادية للقط دون تحفظ أو احتراز.

ونتساءل بيننا وبين أنفسنا كيف استطعنا فجأة وبإشارة واحدة من فنان الرسوم المتحركة أن ننقلب بعواطفنا من النقيض إلى النقيض. اننا نشقى أحيانا فى سبيل الحصول على قطة نربيها ونطعمها من أجل غرض واحد هو أن تأكل الفئران التى تظهر فى بيتنا، ثم نأتى الآن لنحرم فى الخيال ما ابحناه فى الحقيقة؟ ثم كيف نواجه حيرة الطفل الصغير الذى عرف اننا نكره الفئران ونحذره منها وقد رآنا الآن نفرح مثله بانتصاراتها ونصفق لبراعتها فى التنكيل بالقطط؟

ثم نكتشف أن ما حدث لنا ونحن نشاهد القط والفأر على الشاشة ليس إلا شهادة لما يمكن أن يفعله الابداع الفنى بعواطفنا واحاسيسنا عندما جعلنا نكره على الشاشة ما نحب فى الحياة ونحب على الشاشة ما نكره فى الحياة. لقد انتهى القط فى هذه العملية الابداعية من ان يصبح حيواناً وديعا أليفا يستحق المحبة والصداقة واضحى رمزا لكل قوة غاشمة فى الدنيا تسعى للافتراس وإلحاق الاذى بالآخرين.

وانتهى الفأر نتيجة العمل الفنى من ان يكون حيوانا مؤذيا يجلب الامراض والتلوث واصبح رمزا لكل كائن ضعيف يواجه قوة غاشمة تريد تدميره والقضاء عليه. وليس غريبا بعد ذلك ان نجد انفسنا نتعاطف مع هذا الفأر ونتقمص شخصيته وهو يكافح من أجل البقاء ونرى فيه صورة لأنفسنا عندما نواجه قوة أكبر منا ونجد فى صراعه شيئاً يشبه المعارك اليومية التى نخوضها ضد الظروف التى نلتقى بها فى الحياة. وقد نضحك من أنفسنا عندما نكتشف بعد انتهاء العرض أننا انقلبنا بفضل هذه الحيلة الفنية الماكرة إلى فئران تفلح فى مناكفة القطط والانتصار عليها.

ولعل رسالة الفن الحقيقية وميدان ابتكاره وابداعه هو أن يمنح الاشياء بعدا كونيا ينقلها من طبيعتها الارضية الروتينية المحدودة بزمان ومكان معينين إلى طبيعة جديدة عامرة بالايحاءات والدلالات والرموز، يسمو بها فوق محدودية الزمان والمكان ويرتفع بها إلى مشارف التعبير عن القيم الخالدة فى الحياة لتصبح الدلالة أكثر أهمية من الحدث ويصبح الرمز أكثر أهمية من الادوات التى استخدمها لتحقيق هذا الرمز.

سوف لن نخرج من مشاهدة هذه الافلام ونحن أكثر حبا للفئران أو اكثر كراهة للقطط، لأن القط والفأر هنا لا يمثلان فى المحصلة النهائية إلا وسلة لإبراز معنى من معانى الحياة، ولذلك فإن الذى بقى فى اذهاننا هو هذا المعنى الذى اراد الفنان تصويره والتعبير عنه وهذا الصراع الذى لم يعد صراع قطط وفئران ولكنه صراع نحن اطرافه. صراع ضد قوى الفتك والدمار تخوضه كائنات ضعيفة استنفرت ارادة الحياة من أجل الاستمرار والبقاء.. واستطاعت برغم كل الظروف ان تحقق انتصارها.

***

كان من الممكن منذ أعوام مضت أن نجلس فوق مقاعد المتفرجين بدار العرض السينمائى أو المسرحى ونشاهد باسترخاء فيلما أو مسرحية عربية دون أن نبدى قلقا شديداً للمشاهد المفجعة والاحداث المؤسفة الحزينة لاننا على يقين بأن النهاية السعيدة مقبلة لاريب فيها!

كان ذلك هو الزمن العربى السعيد.

ثم جاءت أزمنة أخرى أقل سعادة وأكثر بؤسا وقتامة فإذا بأفلامنا ومسرحياتنا تفقد مع الايام بهجتها وتفاؤلها وقدرتها العجيبة على التعامل مع الاحداث المؤسفة وتذويبها فى بوتقة الفرح العربي!

وإذا بالمتفرجين من أمثالنا يفقدون بالتالى طمأنينة القلب وراحة البال التى يشاهدون بها الأفلام والمسرحيات العربية بعد أن اصبحت مثل الاحداث السياسية... لا أمان لها.

ويبدو أن ما حدث فى دنيا المسرح والسينما ليس إلا انعكاسا لما حدث فى الواقع.

وأنا اليوم لا أتحدث عن المواطن العربى الذى اراد فى عهد الاستقلال والحرية وجلاء الاجنبى أن ينتقل من كرسى المتفرجين إلى خانة المشاركين فى العرض فوجد نفسه يقوم بدور المهرج، يلبسونه طرطوراً ويضعون فوق وجهه الاصباغ والمساحيق ويطالبونه بالقفز فى الهواء والوقوف على رأسه والمشى على يديه بدلاً من قدميه، لا أتحدث عن هذا المواطن الذى شارك فى تقديم العرض فمسخوا دوره وجعلوه أضحوكة للآخرين، وإنما أتحدث عن المواطن الذى استسلم لاقداره ورضى بمصيره ومآله وبقى متفرجاً دائماً على الاحداث، لا يطالب بدور ولا مشاركة إلا بمشاهدة العرض الجيد والالعاب المتقنة، هذا المتفرج النبيل الكريم الذى عرف قدره فجلس طائعا مستكينا إلى مقعده، هو الذى يؤسفنى ما وصل إليه ماله وما يعانيه من ألم وقلق ومعاناة بعد ان انتهى عهد الممثلين الجيدين واللاعبين البارعين والعروض المتقنة المحبوكة.

لقد كانت الفرجة فى زمن مضى مدعاة للطمأنينة وراحة البال وأصبحت هذه الايام هما وغما وبؤسا لما يحشده اصحاب العرض من كوارث وفواجع يقدمونها دون اتقان أو

حبكة فنية أو مراعاة لأبسط القواعد التى تقتضيها أخلاق المهنة.

إن القواعد التى تلتزم بها جميع العروض الفنية فى كل زمان ومكان، تقتضى أن يعقب لحظات التأزم والتوتر، لحظات استراحة وانفراج، شدا لانتباه المشاهدين واستجابة لما تتطلبه عوامل الاثارة والتشويق، ولكن العروض التى يشاهدها المتفرج العربى هذه الايام لا تلتزم بأى قواعد فنية ولا يهمها من قريب أو بعيد رضا المتفرج أو غضبه، فلحظات التأزم فى مسرحنا العربى لا يعقبها إلا تأزم آخر أكثر قوة وعنفا..

وإذا كان المثل العربى قول: اشتدى أزمة تنفرجي.. فإن واقع الحال علمنا أن الأزمة يمكن أن تشتد وتشتد وتشتد دون أمل فى حل أو انفراج.

***

أهم ملمح مشترك جمع بين أغلب الافلام التى تنتجها السينما المصرية فى هذه المرحلة، هو حديثها عن أزمة

السكن، فهى مشكلة تهيمن هيمنة كاملة على هذه الاداة من أدوات التعبير، وإذا لم يكن الفيلم يتمحور كله حول الشقة، فلابد أن يحتوى فى جانب منه حدثاً أو موقفا يتعلق بهذا الموضوع.

وبرغم أن السينما أداة دارجة، وتناولها للقضايا غالبا ما يكون أقل عمقا من الكتاب أو المسرحية، فهى أداة تتعامل مع الواقع المباشر أكثر من تعامل الوسائل التعبيرية الأخرى. قد يكون فيما تقوله تمويها للواقع، أو هروبا من مواجهة مواقفه الحادة المتفجرة. ولكنها أداة بحكم جماهيريتها وشعبيتها، وبحكم وسائلها وامكانياتها، لا تستطيع أن تبتعد كثيراً عن هذا الواقع اليومي، والتعاطى معه سلبا أو ايجابا، قبولا أو رفضا أو هروبا، إنها لا تستطيع إلا فيما ندر، وفى أفلام يغلب عليها الطابع التجريبى أن تحقق تفوقا بمثل ما يمكن ان تحققه الكتابة الإبداعية حين تتناول القضايا الفكرية والفلسفية المعقدة التى تتجاوز التعاطى مع الواقع المباشر وتنتقل إلى معالجة البنى الفكرية خلف هذا الواقع، ولذلك فقد هيمنت أزمة السكن، برغم ظرفيتها، على قصص هذه الافلام ومواضيعها حتى صارت كلمة الشقة التى ترد على ألسنة

الممثلين هى أكثر كلمات الحوار إعادة وتكراراً، وصار الالحاح على هذه القضية يعكس مدى ضخامة الأزمة التى يعانيها المواطن المصرى فى بحثه عن سكن، وهو يعكس أيضا أزمة أخرى عندما تتحول قضية ما إلى هاجس يسيطر على عقول المبدعين إلى حد ان يصبح الفن الذى ينتجونه سجين هذه الازمة.

وإذا كانت مجموعة قليلة من هذه الافلام قد افلحت فى تصوير الازمة تصويرا صادقا وقدمت معالجة مسئولة لظروفها واسبابها، فإن الغالبية العظمى من هذه الافلام لم ترتفع إلى مستوى المعالجة المسئولة. وأصبح الامر بالنسبة لها مجرد مماراة وتقليد لتيار سائد ومحاولة لتملق جماهير السينما ووسيلة لاثارة عواطفها وابتزاز مشاكلها، دون التزام حقيقى نحوها أو بحث صادق للالتقاء بها وتصوير أمين لمعاناتها، بدليل أن كثير من هذه الافلام تجرى حوادثها فى دارات وقصور تأكل مساحة شاسعة من الأرض دون أن يحس منتج أو مخرج أو كاتب الفيلم بمدى التناقض بين حديثه عن الأزمة وتبنيه لسلوك واخلاقيات ونماذج تتعارض وتتصادم مع زمن الازمة ومكانه ومجتمعه.

ـ الشقة، الشقة، الشقة.

كل مدن الدنيا تعانى من هذه الازمة، ولاشك أنها فى مصر أكثر شراسة واستفحالا، خاصة فى عاصمتها الكبرى التى ازدحمت بسكانها وضاقت بأزماتها ومشاكلها، ولاشك أن بحثا صادقا مسئولا عن حل لهذه الأزمة بات ضرورة وطنية باعتبار أن السكن صار يمثل فى هذه المرحلة من تقدم البشرية شرطا من شروط الانتماء للعصر وسببا أساسياً لاستقرار المجتمعات ونمائها وتحقيق عافيتها النفسية. وانشغال الفنان بهذه القضية إنما يمثل طموحا نبيلاً تفرضه رسالة الفن فى التعبير عن هموم الناس ومعاناتهم. ولكن ثمة مسألة بالغة الاهمية لابد من مراعاتها، وهى إنه كلما كبر حجم الأزمة وعظمت خطورتها كلما احتاج الاقتراب منها إلى أبلغ قدر من الضمير والحكمة والمسئولية، وإذا كانت أزمة السكن تمثل أخطر الازمات التى عانى منها المواطن المصرى فهذا يقتضى أن يكون التعامل معها أشد صعوبة من أية قضية أخري. وهذا الفهم للأسف الشديد مازال غائباً عن بعض هذه الافلام التى تعاملت مع أزمة السكن فى مصر باستخفاف أضر بالفن كما أضر بالقضية.

للفنانة البريطانية الكبيرة فينيسا ريدجريف معجبوها الكثيرون الذين يذهبون إلى افلامها ويشاهدون مسرحياتها ويقدمون لها دعما وتشجيعا يجعلها ـ وبرغم الدعاية الصهيونية والأخرى التى يقوم بها أعداؤها السياسيون ضدها ـ تجد مجالا للعمل وسوقا يطلب انتاجها.

وإذا كنا كمواطنين عرب نتابع أعمال هذه الممثلة ونحترم جهودها وموقفها الشريف والنبيل من القضية الفلسطينية، ونهتم بهذا الجانب من نشاطاتها السياسية، فإن لها أيضا نشاطا محليا سياسيا ورؤية فيما يخص اسلوب الحكم فى بلادها بريطانيا. فهى من المؤسسين والاعضاء القياديين لحزب راديكالي، ولكن الجمهور البريطانى الذى أحب فينيسا واعترف بابداعها ظل دائما يفصل بين شخصيتها الفنية وشخصيتها السياسية. فلا ينكر فنها وابداعها وتفوقها فى التمثيل لأن لها نشاطا سياسيا مع جمعيات اليسار الراديكالي، ولا يقبل سياستها لأنها امرأة ذات موهبة تفوقت فى اداء وتمثيل الشخصيات الصعبة فى السينما والمسرح. يأتى الناس إليها ويقفون أيام الشتاء فى طوابير طويلة ليمكنهم رؤيتها وهى تمثل ايزادورا أو فيدرا ولكنها عندما ارادت ترشيح

نفسها فى الانتخابات البرلمانية وجاءت إلى الجمهور تحمل ألوانها السياسية مستفيدة من سمعتها كممثلة ذائعة الصيت، فإن هذا الجمهور لم يخلط بن فنها وسياستها، ولذلك ظل الطريق الذى يقود إلى مركزها الانتخابى خاليا وظل الصندوق خاويا، وضاع منها المبلغ الذى يدفعه المرشح كرسوم للتسجيل ولا يسترده إلا إذا حقق حدا أدنى من الاصوات لعله مائة صوت، وضاع هذا المبلغ لأن فينيسا ريدجريف لم تجد حتى هذا العدد الضئيل من الاصوات يرشحها.

والذين يعرفون فينيسا يعرفون رأيها فى مثل هذه القضايا وتفسيرها لمثل هذا التباين فى موقف الجمهور منها. فهى تعتقد أن هؤلاء الناس ضحية أجهزة الاعلام الكبيرة التى تمارس قمعا لوعيهم السياسى وتقوم باجراء عمليات غسيل مخ يومية لعقولهم بحيث لا يفكرون إلا بمثل ما تفكر المؤسسات التى تتولى الحكم والقيادة فى المجتمع. ومهما كان هذا المنطق صحيحا فإن الدرس الذى نستفيده من هذا التباين هو القدرة على رؤية الاشياء واضحة محددة المعالم والحكم عليها بموضوعية ودون خلط للأوراق والألوان.

وبمثل ما أعطت فينيسا السياسية للقضية العربية من مواقف تأييد ومؤازرة، فإن فينيسا الفنانة قدمت عدداً من المشاريع الفنية من بينها فيلم الفلسطيني الذى ساهمت فى انتاجه، وإذا كان أهل بلادها يرحبون بفنها ويهملون مواقفها السياسية، فإننا للأسف الشديد لم نقدم أى دعم لهذه المرأة التى تحملت التضحيات من أجلنا لأعلى مستوى الفن ولاعلى مستوى السياسة.

***

ومتابعة لحديث السينما نقول، بأن مجالس الحكم المحلى التى تلجأ إلى سياحة المؤتمرات لانعاش السوق وتطوير الاقتصاد السياحى وجلب المزيد من السواح، أضافت وسيلة أخرى تخدم بها هذا الغرض، هى اقامة المواسم الثقافية السياحية. ومن اكثر هذه المواسم سهولة فى الانجاز، مهرجانات السينما التى لا تقتضى إعداداً كبيراً مثل الاعداد الذى تحتاجه مهرجانات الموسيقى أو المسرح، أو غيرهما من الفنون. ولذلك راجت هذه المهرجانات الدولية وتناسلت وافرخت مهرجانات صغيرة تخصص لأفلام مخرج واحد، أو قضية واحدة أو حقبة تاريخية معينة. وكنت أظن أن هوس

هذه المهرجانات يصيب المدن ولا يصيب القرى، ولكنى اكتشفت عندما ذهبت فى زيارة إلى قريتى على حافة الصحراء الكبرى. ان الوعى السياحى السينمائى انتقل أيضاً إلى هناك. وجاء من ابناء القرية من يلومنى قائلاً:

ـ هل هانت عليك قريتك إلى هذا الحد؟

ـ لماذا لاسمح ا ؟

ـ ألا ترى مهرجانات السينما التى تقام فى كل مكان؟ ألا تحس بالأسف وأنت ترى القرية التى أنشأتك محرومة من اقامة هذه المهرجانات؟ ألا تكتب كلمة تساهم فى رفع هذا الظلم وتساند دعوتنا لإقامة مهرجان مزدة العالمى للأفلام؟

كنت مندهشا لأننى أعرف أن مزدة لاتملك دار عرض سينمائي، وان الواحد منهم لكى يشاهد فيلما، عليه ان يسافر إلى المدينة التى تبعد مئات الاميال، فكيف تحولت مطالبهم من الحصول على غرفة تعرض لهم الافلام، إلى مهرجان للسينما العالمية، وعندما عبرت لهم عن أسفى لاستحالة اقامة هذا المهرجان لأنه يحتاج إلى صالة عرض لا تتوفر عليها القرية، أوقع فى يدى عندما أجابوا قائلين:

ـ لقد تحقق بناء الصالة أثناء غيبتك، ولم يعد ينقصنا الآن إلا اقامة المهرجان.

ها هو التطور داهم قريتى أثناء غيابي. وقفت حائرا لا أدرى ماذا أقول، إذ ما الذى يحتاجه مهرجان عالمى للأفلام غير هذه الصالة التى يستخدمونها أيضاً للأفراح والمناسبات، وكلهم يؤكدون أن كل الاعراس وحفلات الختان ستتوقف اكراما لأهل السينما الذين سيخصصون الصالة لعرض أفلامهم طيلة أيام المهرجان، تذكرت أن مزدة ليس بها فندق، وان استضافة أهل السينما ستكون عبئا كبيرا على جيوبهم، خاصة وان شح الموارد فى الصحراء قد اضعف من خصالهم التى تتصل بالكرم واستقبال الضيوف، ولكن ما ان انذرتهم بهذه المصيبة حتى وجدتهم يتبارون جميعا فى ابداء واجب ضيافة نجوم هذه الافلام، بل صاروا يتخاصمون فيما بينهم عمن سيفوز باستضافة سامية جمال أو تحية كاريوكا أو نعيمة عاكف أو نجوى فؤاد، ورفض أحدهم أن يتنازل لرجل آخر عن استضافة كوكا بطلة فلم عنتر وعبلة، ولم يهدأ النقاش إلا عندما اقنعوا غريمه بأن يستضيف الأميرة الهندية التى رآها فى فيلم سنجام. ولم يعدم من بين شباب القرية،

الأصغر سنا، من تطوع بتقديم غرفة لنجلاء فتحى وسعاد حسنى وميرفت أمين. لم أكن أعرف أن أهل قريتنا على علم بكل هؤلاء النجوم، وبرغم ان بعضهم توقفت معلوماته السينمائية عند امجاد تحية كاروكا وسامية جمال، فقد كان واضحا انهم جميعا يشتبكون فى علاقة حب واعجاب مع هؤلاء الممثلات، الاحياء منهن والاموات، ولم يعد ممكنا النجاة من حصارهم إلا بمحاولة اقناعهم بالحكمة والمنطق، فكل هذه المدن التى تستضيف مهرجانات الافلام لها تاريخ قديم مع السينما، وليست قرى لم تعرف صالة للأفراح وعرض الافلام إلا منذ أيام بل ان أغلبها تنتج افلاما وتستخدم هذه المهرجانات لترويج افلامها، وليس لمجرد استعراض مفاتن الممثلات لأنهن على الشاشة أكثر اغراء وجمالا من واقع الحياة وكان الجواب بيدهم جاهزاً:

ـ ولماذا تظننا نريد اقامة مهرجان مزدة العالمي، إن لم يكن من أجل عرض وتسويق افلامنا.

بدا كلامهم غامضا على مداركى فمنذ متى أصبحت مزدة تنافس هوليود فى صناعة الأفلام. عبرت عن دهشتى فتطوعوا بالشرح قائلين، بأن كاميرا الفيديو التى عاد بها

أبناء قريتهم من المدينة، تناوبت عليها الايدى خلال عام كامل تصور كل يوم فيلما أو فيلمين عند عرس أو نزهة أو حفلة مدرسية، علاوة على مواسم الحرث والحصاد، وإن لديهم الآن رصيدا يصل إلى مئات الافلام التى صورت حياة الناس، وسيكون هذا المهرجان فرصة لعرض مدرستهم الجديدة فى أفلام الواقع والطبيعة، ولم أجد بعد ذلك مندوحة من الرضوخ لمطالبهم، وتسخير قلمى لتأييد دعوتهم، واستخدام علاقتى الطيبة بزملاء المهنة من نقاد السينما لوضع هذا المهرجان فى برنامجهم، والسفر إليه عندما يحين موعد افتتاحه، وسوف أضمن لهم خيمه يقيمون بها، لأن كل بيوت أهل القرية ستكون محجوزة لفاتنات السينما من مغنيات وممثلات.

***

ولا أدرى لماذا أجد اليوم، ان حديث السينما يقودنى إلى الحديث عن ألبرتو مورافيا الذى رحل أخيراً عن عالمنا، ربما لأن أحد بواكير الافلام التى شاهدتها فى حياتي، كان

فيلما ايطاليا بعنوان امرأتان عن قصة لمورافيا. ولعل صوفيا لورين كانت من بين نجومه، حيث بدأ اعجابى بها، وقادنى هذا الاعجاب إلى ضرتها لدى أرباب الفن والجمال جينا لولو بريجيدا، ثم دخلت كلوديا كاردينالي، وجها جديدا يفيض ببهاء الشاطئ الجنوبى للبحر الابيض المتوسط حيث عاشت جزءاً من طفولتها، فأصبحت مولعا بأفلامها أيضا، وأصابتنى حالة تثبيت ذهني، جعلتنى لا أستسيغ منذ ذلك الوقت أفلاماً إيطالية تخلو من ذلك الثالوث الذهبى لفاتنات السينما الايطالية. وظل ألبرتو مورافيا كاتبا محببا لما يملأ كتاباته من نزق وعبث وروح مرحة مع براعة الأداء الفنى وعمق التحليل النفسي. وأذكر كيف قرأت منذ عامين خبرا مغلوطا نشرته احدى الصحف عن وفاته، وكان يرافقنى ذلك اليوم كاتبنا الليبى الكبير على مصطفى المصراتي، الذى كان أكثر اسفا على رحيل مورافيا، فقد عرف الرجل معرفة شخصية، ونشر طرفا من أحاديثه معه، فأمضينا ذلك المساء نذكر مآثر مورافيا ونعيب على الصحيفة العربية انها اكتفت بنقل خبر وفاته دون ان تشيد بمناقبه وتذكر مواقفه المتعاطفة مع قضايانا العربية.

ومضت أشهر عديدة قبل أن اقرأ خبراً جديداً عن مورافيا يقول بأنه جاء لحضور مؤتمر أدبى قام بمدينة عربية. واستغربت كيف يمكن لمورافيا الذى قرأت خبر وفاته، ان يظهر بعد الموت، ويختار لظهوره مؤتمرا أدبيا عربيا. وتساءلت إذا ما كانت المؤتمرات الادبية العربية قد صارت حكراً على حضور الاموات فقط. وقفت حائراً أمام الخبر، ثم رميت الصحيفة وفى ذهنى انه خبر مغلوط قصد به محرره أرملة مورافيا وليس مورافيا نفسه. ولم تتأكد لى صحة ذلك الخبر إلا عندما قرأت منذ أيام خبر وفاته وقد نشرته الصحف ونقلته الاذاعات. وطالما أن مورافيا لا يستطيع أن يموت مرتين، فلابد أن الخبر القديم عن وفاته كان كاذبا، وأن الخبر هذه المرة الذى جاء مشفوعا بما يستحقه الرجل من كلمات الوداع، هو الخبر الصحيح. وهكذا فجعت فى الكاتب الذى احببته مرتين، بسبب ادمانى على قراءة الصحف العربية. وساقنى هذا الادمان أخيرا لأن اقرأ مقابلة صحيفة معه، نشرت بعد وفاته، حول علاقته بصديقه المخرج السينمائى بازوليني، ذلك المخرج الذى عرف بغرابة اطواره كما عرف بانجازاته المميزة فى مجال الفن

السابع، وهذا ما دفعنى للكتابة عنه اليوم، فهو يصلح مثالاً صارخاً للطريقة التى يتعامل بها المخرجون العالميون مع المواضيع ذات الطابع العربي. وقد أخرج بازوليني، فيلماً شهيراً، عنوانه »الليالى العربية«، ما أن قرأت اعلاناً عنه، حتى ذهبت راكضاً إلى الصالة التى تعرضه. فها هو مخرج عالمى أتى ليعالج القصة التى جسدت عبقرية الخيال العربي، ويستخدم خبرته فى الكشف عن أسرار الجمال والاعجاز الذى احتوته جوهرة أساطير الدنيا.

وجلست أمام الشاشة استعد لاستقبال شخصيات ألف ليلة وليلة التى رافقنى سحرها منذ أعوام الطفولة، وانتظر ان أرى نساءها اللاتى يتسمين بأسماء الشموس والاقمار والبدور لما لديهن من فتنة وبهاء، يتحولن إلى شخصيات تتحرك وتتكلم على الشاشة الفضية. وما أن بدأ الفيلم، حتى أصبت بأعظم خيبة أمل قابلتنى فى عالم الافلام والنجوم، فقد اختار بازولينى بمزاجه الغريب وافكاره التى تبحث عن الشذوذ، أن ينتقل بأحداث ألف ليلة وليلة واساطيرها إلى احدى قرى افريقيا السوداء، بدلاً من بغداد أو القاهرة أو ساسان أو سمرقند، أو غيرها من مدن الشرق، وان يختار أبطال ألف

ليلة وليلة من عجائز تلك القرية ونسائها الداكنات السواد، وتحولت القصة التى تتحدث عن شمس النهار وقمر الزمان إلى شيء آخر لا علاقة له بألف ليلة وشموسها وأقمارها مجرد مسخ وتشويه وخيال مريض، ولاشك اننى كنت سأستمتع بفيلم عن افريقيا، يحتفل بجمالها الاسود، أو يعتنى باظهار بيئتها وتاريخها. ونبل وشهامة أهلها، كما فعل الفيلم التليفزيونى الملحمى »الجذور« الذى تابعناه بشغف وأحببنا أبطاله من نساء ورجال. فالاعتراض ليس لأنه انتقل بوطن القصة وعالمها إلى افريقيا واستخدم ابطالا لهم بشرة سوداء، لأن الاعتراض يظل قائما حتى لو اختار بلادا اسكندنافيا وانتقى نجومه من بين شقراواته ورجاله بلحاهم الحمراء. إنه فى الحالتين مسخ وتشويه لقصة تحدث لدى اناس آخرين وفى أوطان أخري. لقد كان الفيلم صدمة أعمتنى عن رؤية جوانب الابداع التى يذكرها النقاد لهذا المخرج. بل إن نفسى عافت الاقتراب من أفلامه، فلم أحفل بمشاهدة أى شيء آخر له بعد ذلك.

***

إلى أى مدى تستطيع العروض المسرحية التى تستقطب عشرات الآلاف من المتفرجين كل ليلة كما يحدث فى مصر الآن، ان تكون تعبيرا عن المزاج العام وطبيعة المجتمع فى هذه المرحلة وإلى أى مدى تستطيع أن تعكس اهتمامات الناس وهمومهم وتقدم لنا صورة صادقة لخريطة المشاعر والانفعالات كما يفعل أى فن جماهيري.

هذا ما حاولت الاهتداء اليه وأنا اشاهد بعض العروض المسرحية التى تنتمى إلى ثلاثة أنواع من المسرح. مسرح سياحي، يهتم بالسياحة العربية أو السياحة الداخلية عندما يلاحق المصطافين فى الاسكندرية ويقدم لهم شيئاً يضيف استرخاء إلى جو الاسترخاء والتسلية ويكون جزءاً من أيام الاجازة فهى إجازة من العمل بقدر ما هى إجازة من أعباء الحياة اليومية وهمومها. مسرح يعتمد على نجوم الفكاهة والاسكتشات الضاحكة، وفقرات الرقص والغناء دون مراعاة للتقاليد المسرحية المعروفة، فهو أقرب إلى مسرح المنوعات منه إلى الفن المسرحي، وهناك مسرح يراعى هذه التقاليد فى التأليف والاخراج والتمثيل والبناء الدرامي، ولكنه مسرح

هروبي، أى أنه يقدم عالما بديلا لعالم الواقع العامر بالمشاكل والهموم، ويأخذ المتفرج فى رحلة تشبه الرحلة التى تأخذه إليها الحبوب المهدئة للاعصاب. ولهذا المسرح جمهوره من عناصر المجتمع الانفتاحى القادرين على دفع تذاكره المرتفعة الثمن والمحبين لمواضيعه التى لاتحملهم عبء التفكير أو القلق. وهناك بطبيعة الحال مسرح ثالث، يسعى لأن يكون استمرارا لمسيرة المسرح الجاد، تقدمه بعض مسارح القطاع العام وبعض مراكز الثقافة الجماهيرية وفرق الشباب والهواة عبر دوائر صغيرة محدودة. وبرغم التفاوت فى الاهداف والمستويات وأساليب المعالجة، فإن هذه العروض جميعها تشكل ظاهرة مسرحية لها جمهورها ومؤلفوها ومخرجوها ونقادها وصحافتها وتعبر عن مزاج عام يسود الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من جوانب سلبية وايجابية، فما هو هذا المزاج العام الذى عبرت عنه هذه المسرحيات وإلى أى مدى اقتربت أو ابتعدت عن القضايا الساخنة التى يتفجر بها الواقع، وكيف تعاملت مع ما يشهده العالم من تحولات هائلة على مستوى المعطيات الدولية التى هزت معطيات الواقع العربى والمحلي.. وليس معنى ذلك اننا نريد أن تتحول

المسرحيات إلى صورة مشابهة للصفحات الأولى فى الصحف السياسية تنقل لنا الأخبار والأحداث أو تقوم بالتعليق عليها، ولكن هناك شيئاً عميقا وراء عناوين الاخبار يتفاعل فى عمق الحياة الاجتماعية هو ما يمكن ان نراه معكوسا فى هذه الاعمال المسرحية، لقد عرفنا فى مناسبات كثيرة ومراحل تاريخية متعددة، كيف كان المسرح شيئاً يشبه جهاز رسم القلب، الذى نرى على شاشته خطا بيانيا لنبض الحياة فى قلب المجتمع صعودا وهبوطا.

ولنقل بداية أن هناك بعض القواسم المشتركة بين هذه العروض المسرحية المختلفة والمتباينة والمتنافرة أحيانا. وأول هذه القواسم انها تحاول أن تستفيد من المناخ السياسى الذى يتيح حرية التعبير، فتضع فى حوارها بعض الاسطر التى تنتقد الأجهزة الرسمية والممارسات الحكومية وأغلبها يفعل ذلك بطريقة سطحية مفتعلة، بحثا عن إثارة سريعة وليس تناولا عميقا وصريحا لمعضلات الحياة التى يواجهها المواطن، باستثناء بعض العروض النادرة.

إن الصورة التى تعكسها بعض هذه الأنواع من العروض المسرحية صورة باهتة ومشوشة ان لم تكن مشوهة

أحيانا وهى أن كانت تعكس هذه الالوان الباهتة والمشوشة فى الحياة الاجتماعية وما احدثه المجتمع الاستهلاكى الانفتاحى من اخلال بالقيم والمفاهيم. فانها تفشل فى التقاط ما ينبض به قلب الحياة الاجتماعية.

إننى أحد الذين يؤمنون بأن النص هو أساس العمل المسرحي. ومهما كان حجم الامكانيات الأخرى كبيرا. فإن هذه الامكانيات لا تستطيع ان تكون مسرحا ناجحا وقادرا على التعبير عن روح الشعب. ولقد اختفت النصوص الجيدة من عروض هذا الموسم فقد كان صعبا ان يكون المسرح فى هذه الحالة جهازا لرسم القلب.

***

لم يعد أتيليه القاهرة ناديا للرسامين فقط وإنما صار مركز لقاء لمواهب ومهارات أدبية وفنية تأتى إليه من مختلف حقول الابداع، لتلقى الاشعار أو القصص وتناقش القضايا الفكرية وتقدم معارض الفن التشكيلى وتعقد حلقات النقاش الحر حول الموائد المتناثرة فى حديقته الصغيرة وهو

أكثر المراكز الثقافية فى القاهرة نشاطا وحيوية، وانجحها فى استقطاب جهود واهتمامات الطلائع الجديدة من أدباء وفنانين. فهناك على مدى الاسبوع أكثر من محاضرة أو امسية تقام يومى الجمعة والثلاثاء، وهناك معارض متتالية لأعمال الرسامين وندوات تعقد لمناقشة هذه المعارض. وبذلك أفلح هذا النادى فى أن يحقق تواصلا بين مختلف مدارس الفن ومختلف الاجيال من مبدعين. وبين معارض الرسم التى يقدمها أتيليه القاهرة معرضا يمكن أن يكون خير تعبير عن هذه المغامرة الفنية التى يخوضها هذا النادي، فصاحبة المعرض ميسون صقر القاسمي شخصية فنية من الإمارات، ترسم وتكتب الشعر، وتأتى إلى أتيليه القاهرة لتقدم تجربة إبداعية جديدة، فهى لا تكتفى بعرض لوحاتها، كما يفعل بقية الرسامين، وإنما تقدم هذه اللوحات مصحوبة بقصائد شعرية من تأليفها، كتبتها لتكون تعبيرا عن روح ومضامين هذه اللوحات، وكأنها تريد لهذه التخوم التى تفصل بين الشعر والرسم أن تذوب وتتلاشى ويتحول الرسم شعرا والشعر رسماً، وهى بمثل ما تكتب قصائد عامرة بالاضواء والظلال والألوان، فهى أيضاً ترسم لوحاتها بانفعال وتدفق وثراء

شعري، وتهرب من مظاهر الاشياء واشكالها الخارجية بحثا عن المعانى الخفية الكامنة وراء المظاهر، فإذا بنا نلتقى بعالم من التكوينات ذات الزخارف والألوان الزاهية التى تعطى انطباعا بأننا نرود حديقة سرية تمتلئ بالازهار والعبير، أو نسمع تصفيق أجنحة تعانق المدى، أو نحضر عرسا تقيمه الأشجار، إنه عالم من الهواجس والأحلام والأطياف والرؤى، التى تهرب من سجن الاشكال المحدودة والمعانى المحددة، انها تقول بأن هناك فرحا طفوليا يستهويها ويملأ روحها، وهذا الفرح الطفولى الذى يلهو ويعبث بالالوان والمعاني، حاضر فى أغلب لوحاتها. لنستمع إلى نبرات الانفعال فى صوتها :

اخدش الاسطح الملساء وأصب عليها ناري، أمزق ما يزيفنى وأنثره أناسا وطيورا أطيرها بعيدا وانتظر عودتها بأجنحة من فراغ. تتلاطم أمواج الضجر، والريح تشكل بالغبار رئة من دم تنبض بالهلع.

لعلها صورة تتناقض مع الفرح الطفولى فى لوحاتها، ولكنها تقول أيضاً بأنها تسعى إلى تحويل العالم الخارجى إلى عالم أراه من خلال ذاتي، بمعنى أن تتلون الاشياء بلون

الانفعال والتلقائية التى يرى بها الفنان الاشياء، وما يمكن أن نقوله هنا، هو أن الاعتماد على السليقة وحدها ليس بالضرورة طريقا إلى تقديم الفن الناجح، ولكن الرسامة تفلح فى أن تنقل الينا هذه الشحنة من الصدق التى تنبض بها لوحاتها.

هناك تفاوت كبير أحياناً فى مستوى اللوحات وقوة تعبيرها، ولكن هذا التفاوت شيء طبيعى فى أعمال أى فنان يعبر عن نفسه تعبيرا حرا وتلقائيا، لأن مستوى اللوحات فى هذه الحالة سيتأثر بالمستوى النفسى للفنان أثناء العمل. ولعل هذه التلقائية هى التى منحت اللوحات فى هذا المعرض عمقها وبساطتها أيضاً.

لكل وقت جمرة/ وفى كل زمن نار مرسلة/ تلك الجمرة تلظت بنارى واستوت/ هل أنبأتها النار أنها لهيبها/ هل أخبرتها الريح أنها جريحها/ والصدى والشجر/ الأدغال، الأسفار، الأنهار/ رحيقها وحريقها/ أيتها الجمرة احترقى احترقي/ سوف تنطفئين أيها النار ـ الجوهرة/ لابد../ المطر سوف يطفئك بطيئا بطيئا/ ستظل نار جمرتي/ حتى لا يحل الظلام.

هكذا تكتب ميسون صقر القاسمى شعرا مرسلا، لا يبحث عن تسويغ نفسه بالاتكاء على ميراث ومكتسبات الشعر العربى وتفعيلاته وبحوره. وبرغم ما فى هذه القصيدة من ارتباك فى الصياغة وسذاجة فى رسم الصورة إلا ان شيئا من توهج الكلمات وصدقها يبقى معنا بعد ان نفرغ من قراءة القصيدة. لقد اختارت هذه الفنانة، القادمة من نبل وثراء شطآن الخليج العربي، ان تعبر عن غنى عواطفها تعبيرا متحررا من الأطر والقوالب الموروثة، وأن يكون ذلك بالرسم والشعر، بالصورة والكلمة فاستطاعت ان تقدم صورة صادقة ومشرقة عن المرأة العربية الجديدة التى كسرت الرتاجات وخرجت إلى فضاء الحرية والابداع.

***

كان راقصا متميزا فى احدى فرق الفنون الشعبية العربية، واوصله تميزه إلى ان فاز بجائزة الراقص الأول فى احدى المهرجانات الدولية عن رقصة تعبيرية جميلة مستوحاة من أجواء الصحراء العربية اسمها رقصة الغزال، كان

يؤديها بحب وصدق وقدرة عظيمة على التلوين فى الأداء وتجسيد تلك اللحظات المشحونة بالقلق والخوف والتوجس التى يعيشها الغزال فى مواجهة بنادق الصيادين.

وكان الجمهور ينفعل مع أدائه ويتحمس له ويصفق له طويلا لابداعه لأنه كان يجد نفسه وصورته فى هذا الغزال المطارد. وهذا بالضبط ما كان يقصده ذلك الفنان الذى حول لوحة راقصة إلى صورة معبرة عن نضال الإنسان ومعاناته فى ظل الظلم والعسف. لقد كان يدخل مجال الفن بوعى وبصيرة ويوظف فنه لصالح افكاره السياسية إذ أنه فى ذات الوقت الذى كان يشتغل فيه بالرقص كان صاحب نشاط سياسى أوصله ذات مرة إلى السجن واوصله فى مرة أخرى إلى منصب وزاري. إلى هنا والأمر طبيعى لا غبار عليه ولكن ما كان غير طبيعى وغير خال من الغبار هو أسلوب تعامل بعض الناس معه عندما وصل إلى المنصب الوزاري، فقد صار كلما اختلف مع مسئول آخر أو دخل خصومة مع طرف من الاطراف بسبب العمل ومسئوليات المنصب الوزارى بادر خصمه إلى تعييره باشتراكه فى فرقة الفنون الشعبية وشن حملة ضد الراقص الذى أصبح وزيرا وكأن

تفوقه فى مجال من مجالات الابداع والتعبير الفنى صار منقصة ومذمة أو كان رقصه التعبيرى ولوحات فنه الشعبى تتساوى مع نمرة تقدمها احدى الراقصات فى ملهى ليلي. إذ لا شك أن هؤلاء لا يعرفون من الرقص إلا ذلك المستوى المتدنى الذى تقدمه الملاهى الليلية والذى يهدف لإثارة الغرائز وابتزاز الزبائن واستغلال جسد المرأة استغلالا مبتذلا رخيصا ولا يعرفون إنه مجال من مجالات الإبداع وفن من ألصق الفنون بحياتنا وأكثرها قدرة على التعبير عن مشاعرنا ولذلك فهو جزء عزيز من تراثنا الشعبى وميراثنا الثقافي.

ولا أدرى ما الذى كان يشعر به هذا الفنان الذى صار وزيرا فأثار غيظ الآخرين وحقدهم وما الذى كان بامكانه أن يفعله فى مواجهة منطق كسيح وفقير إلى الذوق والمعرفة، لقد اصبحت مواهبه وابداعاته مدعاة لازدرائه والانتقاص من قيمته لأنه تجرأ دخول هذا النادى الذى ارادوه مقتصرا على المحرومين من المواهب والعاجزين عن الابداع.

لعل هذا الفنان الذى أصبح وزيراً يدرك الآن أن أداء لوحاته الراقصة أمام جمهور المسرح أكثر جمالاً وبهجة من

الوقوف فوق خشبة المسرح السياسي، وإن الرقص فى مهرجانات الفنون أكثر صدقاً وأصالة من الرقص فى مهرجانات السياسة، وإن المناصب لاتساوى ـ بالنسبة لفنان مثله ـ لحظة واحدة من لحظات السعادة الحقيقية التى كان يحس بها وهو على المسرح يؤدى دوره ويستقبل حب الجماهير واعجابها.

***

كانت فرقة الموسيقى الشعبية التى وقفت تعزف موسيقاها أمام مسرح الفن بالقاهرة، تصنع مشهدا احتفاليا وتقدم عرضا فنيا فى الهواء الطلق، يسبق العرض المسرحى الذى يتم الاستعداد لتقديمه داخل المسرح. كنت قد جئت لحضور المسرحية التى يعود بها نجم الشاشة العربية نور الشريف إلى المسرح وهى مسرحية »المليم بأربعة« التى كتبها أبو العلاء السلامونى وأخرجها جلال الشرقاوي. جئت برغبة أن أرى نور الشريف وهو يتألق بأدائه المتميز تحت أضواء المسرح. فقد شاهدته على شاشة السينما فنانا كبيراً، يتقن أدواره، ويحترم جمهوره، ويحرص على تأكيد وترسيخ القيم التى يستهتر بها الآخرون، كما تعرفت إلى شخصيته

العامرة بالدفء الإنساني، ووجدت فيه فنانا صاحب رؤية فكرية وثقافية فنية عالية وإيمان برسالة الفنان ودوره فى المجتمع والحياة، ومع انه اسهم فى تقديم اعمال مسرحية كثيرة، فإن الحظ لم يسعدنى بأن التقى بفنه المسرحى من قبل، ولذلك حرصت على أن أذهب لأراه فى المسرحية التى حشد لها منتجها عددا من المواهب والامكانيات التى تضمن لها النجاح، فهى مسرحية تنتمى إلى المسرح الاستعراضى الغنائى بتكاليفه الكثيرة، ويتولى بطولتها بعد نور الشريف، الممثلة المشهورة نورا، والممثل الساخر محمود الجندي، وعدد آخر من نجوم المسرح وفرق الرقص والغناء.

وقفت لحظات أمام باب المسرح، استمع إلى فرقة الموسيقى الشعبية التى تقوم بالدعاية للمسرحية وأهيئ نفسى للدخول فى أجواء هذه السهرة التى سنقضيها مع بهاء الفن وصوت الموسيقى ومشاهد التمثيل والرقص التعبيري، ثم جاء من يقودنى إلى غرفة نور الشريف وراء الكواليس حيث وجدته قد تهيأ لأداء دوره وارتدى ملابس الشخصية التى سيقوم بتقديمها على المسرح، واستمعت منه إلى دوافعه فى العودة إلى المسرح بهذه المسرحية الاستعراضية الغنائية التى

أراد أن يسهم بها فى احياء التقاليد التى ترعى هذا الفن وتسخره لخدمة قضايا الناس. وجاء موعد العرض فجلست أمام المسرح استمتع باللوحات الاستعراضية والاغانى المرحة التى كتب كلماتها الشاعر عبد الرحمن الأبنودي، وأعيش أجواء الحارة المصرية واحتفالاتها الشعبية التى اجاد المخرج تصويرها، وانتظر ظهور نور الشريف فى دور ابن الحارة الذى غاب عنها سنوات طويلة ثم عاد إليها يرتدى البرنيطة ويتعامل بتهريب العملة وبيعها فى الاسواق السوداء، ويسعى لاقناع أهل الحارة بالمهارات الجديدة التى اكتسبها أثناء غربته والتى تضمن لهم الثراء السريع، وكانت هذه النقطة احدى أهم ايجابيات النص المسرحي، لأنه لم يجعل هذه الاساليب الانتهازية الابتزازية نابعة من الحارة المصرية وانما وافدة عليها. ومن خلال المشاهد التمثيلية واللوحات الراقصة، والغناء الذى شارك فى أدائه نور الشريف، نلتقى بطرح جديد لقضية التواطؤ مع المجرمين والافاقين من قبل أجهزة ومؤسسات رسمية، حيث يصنع هذا التواطؤ حجابا يمنع المواطن من رؤية هؤلاء الافاقين

والمجرمين على حقيقتهم ويسقط بالتالى ضحية غشهم وخداعهم.

لا أعتقد أن هناك فى المسرح التجارى من اعتنى بتقديم مثل هذه المعالجة الجريئة لقضايا تتصل اتصالا مباشرا بحياة الناس وتضع المسرح فى حالة تماس مع الهموم اليومية لأبناء المجتمع. وبرغم بعض المباشرة والتقريرية واسلوب المعالجة الصحفية التى لجأ اليها كاتب النص المسرحي، إلا ان اسلوب المسرح الشامل، ومهارة المخرج، ومصمم الديكور، ومصمم الرقصات، وكاتب الاغاني، الذين كانوا شركاء فى التأليف، انقذت المسرحية من السقوط فى الرتابة التى تجلبها مثل هذه المعالجة.

لا أدرى إذا كان الاعجاب بفنان العرض، بمنعنا من رؤيته رؤية موضوعية والحكم على فنه بتجرد وانصاف، فأنا أحد المعجبين بفن نور الشريف وقدرته على تجسيد أكثر الادوار صعوبة وتعقيدا. وبرغم أن مسرحية كثيرة الالوان مثل هذه المسرحية التى تعتمد على الرقص والموسيقى والغناء، بأكثر ما تعتمد على قدرات الممثلين، لا تتيح للمواهب الكبيرة فى التمثيل فرصة الانطلاق بأقصى قوتها

وطاقتها، فقد بدأ اداء نور الشريف، صادقا وطبيعيا ومفعما بالحيوية. وتألق فوق المسرح، فنانا صاحب جاذبية، وقدرة على السيطرة على مشاعر المتفرجين بما يملكه من روح الحضور والتواصل مع الجمهور.

سوف تجد هذه المسرحية من يهتم بتقييمها والحكم على قيمتها الفنية الدرامية، لأن ذلك يحتاج إلى براح أكثر من هذه المساحة الصغيرة، وما يهمنى الآن هو تقديم صورة عن فنان العرض، الذى تصادف هذه المرة أن يكون واحدا من أحب النجوم إلى المشاهدين العرب كما اثبتت ذلك الجوائز التى نالها من الجمهور قبل أن ينالها من النقاد وحكام المهرجانات، ومع كل هذا النجاح، وكل هذه التجارب فقد كانت اللحظات التى رأيته فيها قبل رفع الستارة لحظات عامرة بالتوتر، والاحساس بمسئولية الفنان وهو يلتقى بجمهوره، وكأن كل مرة هى المرة الأولي، وكل عرض هو امتحان جديد لمهاراته وكفاءته.

***

قرأت تساؤلا يطرحه فضيلة الشيخ الاستاذ على الطنطاوى فى إحدى مقالاته بـ الشرق الأوسط عن مسيرة وحياة المخرج المسرحى الاستاذ فتوح نشاطي. لقد حضر الشيخ الفاضل فى مطلع شبابه، درسا فى التمثيل يقدمه الاستاذ نشاطى ومازال اسمه عالقا بذاكرة هذا الكاتب الاسلامى الكبير الذى مازال يثرى حياتنا بفيض ذكرياته وجليل افكاره واضاءاته التى يقدمها بأسلوبه العذب الجميل كل أسبوع للقراء، مواصلاً مسيرة خصبة نبيلة بدأها منذ أكثر من ستين عاما، ويتساءل فضيلة الشيخ عما حدث لذلك المخرج بعد لقائه به، وارضاء لفضيلته، أردت ان اسرد بعض الانطباعات الشخصية عن هذا الرائد من رواد الحركة المسرحية الذى رحل عن حياتنا منذ أعوام مضت، ولكنه ترك أثراً لا يمحى فى حياتنا المسرحية وأسهم فى بناء جيل من المسرحيين المسلحين بالعلم والثقافة، وأخرج عددا وافرا من المسرحيات كما ترجم مسرحيات أخرى وكتب عن المسرح وألف بعض الكتب أذكر منها ذكرياته عن بداية حياته المسرحية ورحلته إلى باريس لدراسة المسرح. ولقد حضرت عام، ١٩٦٣ على ما أذكر، جلسات التمرين

لمسرحية كان يخرجها الاستاذ نشاطى للمسرح القومى بالقاهرة هى بيت برنادا ألبا للشاعر الأسبانى لوركا. وهى مسرحية كل شخصياتها من النساء، حيث أسند دور الأم برنادا ألبا للممثلة الذائعة الصيت أمينة رزق. وعلى مدى الاسابيع التى حضرت فيها هذه التمارين، كنت أرافق الاستاذ نشاطى محاولا ان استفيد من علمه وثقافته وأركب معه الحافلة أو الترام فى بعض مشاويره فقد كان رجلا بسيطا ودودا يتمتع بتواضع انسانى وقدرة على التواصل مع الناس، وأسلوبا مهذبا راقيا فى اسداء تعليماته للممثلين، وإذا كان المسرح فى تلك الفترة قد عرف مدارس تجديدية وتجريبية على ايدى المخرجين العائدين من بعثاتهم الدراسية أمثال سعد أردش وكمال عيد وكرم مطاوع والذين بدءوا يطبقون المدارس المسرحية الجديدة ويهدمون الجدار الرابع ويجعلون صالة المتفرجين إمتداداً لخشبة المسرح ويستخدمون ديكورا رمزيا ويقدمون أحيانا نصوصا من مسرح العبث لصمويل بيكيت ويوجين يونسكو وغيرهما، فقد كان فتوح نشاطى محافظا على التقاليد العريقة للمسرح، ملتزما بالاصول والقواعد التى تعلمها بفرنسا وجاء ليطبقها فى بيئة مسرحية

كانت تعتمد على العصاميين من أهل الفن، فكان دوره فى هذا المجال يشبه دور زميله زكى طليمات الذى انشغل بالتدريس والكتابة أكثر من انشغاله بالممارسة العملية كما فعل فتوح نشاطى وكان فى حديثه يستعمل تعبير الرواية بدلا من المسرحية ويستعمل تعبير المرسح بدلا من المسرح كما جرت عليه عادة الفنانين من أهل زمانه. كان الرجل خبيرا بفنون المسرح غزير الاطلاع، يستخدم أسلوبا شاعريا فى اخراجه كما تشهد بذلك مسرحية لوركا التى كانت شاعرية اخراجه لها تتوافق مع شاعرية النص، ولعله لم يقم باختيارها واخراجها إلا لأنها تتناسب مع روحه وميله الادبي، وكان صديق عمره الذى يتحدث عنه باكبار وتقدير هو ابراهيم المصرى الذى كان أستاذا من اساتذة القصة النفسية. ولعل استاذنا الفاضل الشيخ على الطنطاوى لم يسمع له ذكرا لأن الاستاذ نشاطى منذ أن رحل عن عالمنا، أهملته أقلام النقاد والكتاب ولم نر جهدا يشيد بذكره أو يؤرخ لمسيرته المسرحية. ولعل الوقت قد حان لأن تنشئ وزارة الثقافة فى مصر متحفا يحفظ تراث هؤلاء الرواد المسرحيين من

مخرجين ومؤلفين وممثلين ممن أثروا حياتنا بعطائهم الجميل الذى كان تأسيسا وتدشينا لكل انجاز ثقافى تحقق بعد ذلك.

***

لم يعد خروج الممثلين عن النص أثناء العرض المسرحى قضية تثير الجدل والنقاش كما كان يحدث منذ أعوام مضت، فقد حسم الأمر الذى أثار استنكار أصحاب الاقلام وحراس القيم الثقافية، وانتصر الممثلون المتمردون على وصاية الكتاب، وصار الخروج عن النص جزءا من تقاليد المسرح العربى الذى نشاهده هذه الايام.

وإذا كان هناك عدد من النصوص القليلة الجادة التى تلقى احتراما من ممثليها ومخرجيها فيحافظون على الالتزام باحداثها وحوارها، فإن أغلب ما نشاهده على مسارح اليوم نصوص تنتمى إلى المسرح الكوميدي، يدخل فيها أبطال العرض كمؤلفين مشاركين لمؤلفها الاصلي، يضيفون إليها ويغيرون احداثها وحوارها ويقومون بعملية تأليف فوري، ارتجالى كل ليلة.

والكارثة الحقيقية أن الأمر لم يعد يقتصر على المسرح التجارى ومسارح القطاع الخاص، وإنما تجاوزها إلى مسارح القطاع العام، فقد شاهدت هذا الاستهتار بالنص المسرحي، يحدث على خشبة المسرح العائم الذى يقدم عملا مسرحيا لفرقة المسرح الكوميدى التابعة للدولة، وشاهدت مؤلف مسرحية حلا حووش يشكو إلى طوب الارض مما يحدث من عبث لمسرحيته كل ليلة نتيجة خروج الممثلين على النص. والاخطر من ذلك أن الامر لم يعد يقتصر على بطل العرض المسرحى وإنما تجاوزه إلى صغار الممثلين الذين يقومون بأدوار ثانوية يحاولون كل ليلة اطالتها وتحويلها إلى ادوار رئيسية رغم أنف المؤلف الذى يموت على أيديهم ليلة وراء الأخرى.

وإذا كانت الثقافة الغربية المعاصرة قد اخترعت لنا »المسرح العبثي« فان العبث الذى تشهده مسارحنا الآن أنشأ ظاهرة جديدة هى »العبث المسرحي« لأن المسألة لم تعد ابداعا فنيا يقتضى جهدا ومعاناة واعدادا وتخطيطا والتزاما بقواعد العمل الفنى وأصوله ومقتضياته، أو احتراما للعلاقة

التى تربط المتلقى بالمتفرج وإنما صارت غشا فى اللعب واستغفالا للطرف الآخر فى اللعبة وهو الجمهور.

لست من حيث المبدأ، ضد المسرح المرتجل، فهناك ألعاب شعبية مسرحية تقوم على الارتجال وسرعة البديهة، وهناك فى تاريخ المسرح ظواهر مسرحية مثل الكوميديا دى لارتي التى اعتمدت منذ قرون مضت مسرحا مرتجلا تقوم به فرق جوالة تجوب الشوارع والطرقات، وهناك استخدامات حديثة للمسرح المرتجل فى معاهد الفن المسرحي، كما اننى ضد مصادرة حق الممثل فى المشاركة فى تطوير النص ليكون قابلا للعرض، لأن أى نص مسرحى هو مجرد مشروع على الورق لا يكتمل إلا بالاضافة والتعديل أثناء التجارب المسرحية، ومرحلة التمرين على أداء المسرحية هى المرحلة الوحيدة التى يجب أن تبقى مفتوحة للاضافة أو التغيير أو إحداث أى زيادة أو نقصان فى النص كما يجب أن تبقى مفتوحة لمشاركة الممثل فى وضع الصياغة الأخيرة لبعض جمل الحوار التى لا تستجيب للأداء التمثيلي، ولكن ما ان تنتهى مرحلة التمرينات وتحين ليلة العرض الأولي، حتى يكون العمل المسرحى قد اكتمل اعدادا، والمشروع الذى كان

نصا مكتوبا قد وصل إلى المحطة التى يستقر عندها، وصار من واجب كل الاطراف احترام هذه الصيغة التى انتهى إليها العمل.

ولاشك ان السبب الاساسى فى استفحال هذه الظاهرة هو ضعف النصوص المسرحية وغياب الكاتب الساخر الذى يستطيع التعامل مع معطيات هذا الواقع الجديد الذى تشهده الحركة المسرحية، إذ أن هناك اقبالا جماهيريا على مشاهدة المسرحيات الساخرة جاء نتيجة نمو الوعى السياحى وازدياد حجم السياحة العربية التى تبحث عن ترفيه عائلي، كما ان هناك وفرة فى نجوم التمثيل الضاحك، دون أن يواكب هذا الإقبال وهذه الوفرة، ظهور كتاب مسرحيين يمكنهم استثمار معطيات هذا الواقع وتسخيرها لتحقيق ازدهار المسرح العربي.

***

سأستهل حديثي، بالاشارة إلى حالة الفصام التى تحكم العلاقة بين المشتغلين بمختلف حقول الابداع فى وطننا العربي، عندما نرى كل مبدع يحصر اهتمامه بالمجال الذى يمارسه، دون أن يسعى لتعميق الوشائج التى تربطه

بالمجالات الابداعية الأخرى. بعكس ما نرى فى أوطان أخرى أكثر تقدما فى مجالات الادب والفن وأكثر اهتماما بتأكيد هذه العلاقة بين المبدعين. وليس معنى هذا القول أن يمارس الرسام كتابة الشعر، أو يباشر الشاعر تأليف الموسيقي، أو يصير الموسيقى مخرجا أو ممثلا أو كاتبا، فاحترام التخصص والاخلاص له والتفرغ لإتقانه وإجادته، أضحى أمرا ضروريا لتطوير أدوات المبدع وتحقيق النجاح فى المجال الذى يختاره، بشرط أن يعتنى فى ذات الوقت بتغذية مواهبه ومهاراته بما تتيحه مجالات الابداع الأخرى.

فالمخرج السينمائى مثلا، الذى يخلص لمجال تخصصه، فلا يشغل نفسه بعمل آخر غير الاخراج، لابد أن يكون له وعى الرسام باللون ورسم المشاهد، يستفيد به فى تقديم مشاهده ولوحاته على الشاشة، ولابد أن تكون له مهارة الشاعر وقدرته على الاهتداء إلى اللقطات الشاعرية، ووعى الموسيقى بالايقاع ووعى المؤلف المسرحى بالحوار، ووعى الكاتب الروائى برسم الشخصيات ونموها فكل هذه مهارات يحتاجها لاتقان عمله، وهكذا بالنسبة للكاتب والرسام والموسيقي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن لهؤلاء

المبدعين قضية مشتركة إزاء المجتمع الذى يعيشون فيه، فتأكيد دور المبدع، وحضوره الفاعل فى المجتمع والحياة، بدلاً من تهميش دوره لحساب قوى أخري، معركة يحتاج الانتصار فيها، إلى تحقيق أكبر قدر من التلاحم والتفاعل بين كل المبدعين، وانطلاقا من هذه القناعة، كنت أدعو إلى تقريب المسافات بين المشتغلين فى مجالات الأدب والفن، واسعى على المستوى الشخصى إلى تعميق الوشائج التى تربطنى بمختلف هذه المجالات. والمسرح، بهذا المعني، يتيح لنا فرصة أن نلتقى فى مكان واحد، بأنواع متعددة من الفنون. وما أن بدأت اتلمس طريقى إلى مسارح القاهرة، وأعيد ما تمزق من خيوط العلاقات التى ربطتنى بالمشتغلين بها، حتى اكتشفت ان مسارح القاهرة اكتسبت مع الوقت طابعا جديدا يجعلها تختلف عن مسارح المدن الأخرى، وأول مظاهر هذا الاختلاف إنها توقد أنوارها وتبدأ عروضها عندما تطفأ مسارح المدن الاخرى انوارها وتنهى عروضها، والذين يعرفون مسارح لندن مثلا، يعرفون ان عروضها تنتهى عند الساعة الحادية عشرة، لكى تتيح لمتفرجيها فرصة اللحاق بالقطارات ووسائل المواصلات العامة، كما تتيح لهم

أيضا فرصة الاستيقاظ مبكرا للحاق بأعمالهم، بينما نجد ان أغلب مسارح القاهرة، وخاصة التجارية منها، لا تبدأ عروضها إلا بعد العاشرة، وتمتد حتى الساعة الثانية والثالثة بعد منتصف الليل، وهى قضية استوقفتنى قليلا، لمعرفة نوع الجمهور الذى لاتهمه مواعيد الدوام الصباحى فى مجالات العمل المختلفة، وقبل أن أذهب لقضاء الليل فى هذه المسارح والاهتداء إلى مظاهر الاختلاف الأخرى. ذهبت فى زيارات نهارية إلى معهد فنونها المسرحية، والالتقاء بعميده المخرج المسرحى الدكتور سناء شافع، ورئيس قسم الدراما الدكتور نبيل حجازي، وعدد من الاساتذة الذين عاصروا مسيرة المعهد منذ مراحله الاولى مثل عميده السابق الاستاذ سعيد خطاب، والمخرج الرائد سعد أردش. وقد اسعدنى ان أرى ان هذا المقر الذى انتقل اليه المعهد بأكاديمية الفنون، هو مقر يليق بهذا المركز الحضارى الذى أمد الحركة الفنية فى مصر والوطن العربى بأهم عناصرها ومواهبها. لم تعد أماكن الدراسة فصولا كما فى المدارس الأخرى، وإنما قاعات مجهزة بكل ما يحتاجه مكان العرض المسرحي، بل ان للمعهد مسرحا كبيرا لاقامة الحفلات، تسعى الادارة الآن

لاستغلاله. وكانت زيارة المعهد فرصة لمعرفة الملامح الجديدة لقاهرة التسعينات، والاهتداء إلى الدماء الجديدة التى تسرى فى اوصال الحياة الأدبية والفنية بها. كما كانت مناسبة لبحث ومناقشة كثير من القضايا والهموم المشتركة، لعل من اهمها طموح هؤلاء الاساتذة والطلاب إلى ان يروا تنسيقا بين الاقطار العربية على مستوى توحيد المناهج التى تقدم فى مختلف المعاهد والاكاديميات الفنية، لتكون هذه المعاهد نقطة البداية والانطلاق نحو تأسيس رؤية مشتركة بين المبدعين العرب، وتحقيق ما نحتاجه من تلاحم وتفاعل بين هذه الميادين فى كافة أقطارنا العربية.

***

القاهرة مرة أخرى

قاهرة أحلامنا الخضراء. نحن الذين كنا صغارا قبل أربعة عقود مضت. نعيش بعيدا عنها آلاف الاميال، ولكن خيطا من نورها كان يضيء ما تكدس حولنا من ظلام. كان أول كتاب قرأناه مطبوعا بحبر مطابعها، ومسطورا بأقلام كتابها، وأول مجلة زاهية الألوان نشتريها ونخبئها تحت أغلفة الكتب المدرسية، هى احدى مجلاتها التى تصنع لنا

عيداً كلما وجدنا قروشا نشتريها بها. هل أقول أيضا أن أول الاغانى التى حفظناها بعد الاغانى التى هدهدتنا بها امهاتنا، هى التى كانت تنبعث من حناجر مطربيها ومطرباتها، وأن أول فيلم عربى شاهدناه وانفعلنا بقصته وأحداثه وأحببنا أطياف النساء الجميلات اللاتى يملأنه شجنا وأسي، أو دعابة ورقصا، كان من أفلامها، حتى عندما تفتحت عقولنا لاستقبال الأطروحات الفكرية، كانت أصوات مفكريها وكتابها هى التى تغذى افكارنا وتقود خطواتنا الأولى على طريق الوعى الشقي.

هل يمكن لأحد من أبناء جيلنا أن ينسى تلك الأيام المجيدة عندما كنا نلصق آذاننا بالمذياع فترة التصدى للعدوان الثلاثى وما بعده، لنلتقط صوت مذيعها هادرا، مجلجلا، يقول هنا القاهرة، فيهز الوجدان، ويحفر اسم هذه المدينة على صفحات قلوبنا كالوشم الذى لا يمحوه الزمان.

القاهرة مرة أخرى

أصل اليها زائرا هذا اليوم بعد غياب دام أربعة عشر عاما. فما أكثر مياه النيل ا التى تدفقت تحت جسور هذه المدينة وقناطرها منذ ان ابتعدنا عنها وابتعدت عنا. احداث

ومواقف ومعارك وصراعات، أخذت أشياء من القاهرة وأضافت اليها أشياء أخرى منذ ان عرفتها وأقمت بها عامى ٦٢/، ١٩٦٣ وتواصلت بعد ذلك علاقتى بها وزياراتى السنوية إليها، حتى جاءت كوارث السياسة الساداتية، تصنع هذه القطيعة وتبعدها عنا كل هذه السنين. وخلال هذه الفترة رأيت بلاداً كثيرة، وأقمت أعواما فى عواصم عالمية كبيرة مثل لندن، ومدن عربية تزدهى بنظامها وحدائقها وجمال طبيعتها وأصالة أهلها مثل الرباط، مع ذلك ظلت القاهرة تمثل فى وجدانى مكانا خاصا لا بديل له، لأنه يتصل بتلك الجذور التربوية، وسنوات التكوين الأولى ويشتبك بذلك النسيج الذى يصنع قماشة الفكر والوجدان. ومهما استطاع لانسان أن يجدد ارتباطاته الوجدانية والعاطفية، ويبحث عن علاقات تكون بديلا لعلاقاته القديمة، فانه قطعا لن يستطيع ان يجد بديلا لأمه. فالقاهرة بالنسبة لي، ولعلها لعرب كثيرين من أبناء جيلي، هى الام التى أرضعتنا حليبها، فكرا وفنا وأدبا وثقافة وسياسة، فصار ارتباطنا بها ارتباطا غير قابل للفصم أو التغيير، ومكانها لا يعادل إلا وطن الميلاد والمنشأ والجذور. فهل تكفى ثلاثون يوما، هى كل ما استطعت

اختلاسه من زمن الالتزامات الوظيفية والعائلية لتعويض كل هذه السنين الطوال من الابتعاد عنها. هل تكفى لكى أرى كل الاماكن التى احببت، وألتقى بكل الوجوه التى أريد الالتقاء بها، واستوعب كل التحولات التى عرفتها القاهرة منذ أن رأيتها آخر مرة. هل تكفى هذه الايام لأن أزور منتدياتها وأجلس إلى المقاهى المطلة على نيلها، وأذهب فى سياحات إلى أحيائها العتيقة التى تعبق بجلال التاريخ، واستعيد الذكريات الحميمة التى ربطتنى بهذه الاماكن والاحياء. إننى أرى فى الأفق خطا يختلف عن الخط الذى ارتبط فى ذهنى بمشهد القاهرة كما أعرفها، لقد جاءت الابراج العالية والكبارى الجديدة تصنع مشهدا آخر لافق لم يألفه البصر بعد. لقد كانت فجيعتى كبيرة منذ أعوام مضت، عندما رأيت ميدان الأوبرا وقد اختفت منه دار الأوبرا، وكتبت مرثية تشبه قصائد البكاء على الاطلال، حزنا على احتراق تلك الدار التى كانت معلما حضاريا من معالم القاهرة. ولكن ها أنا أذهب إلى هذا الميدان فأجد أن طريقا معلقا جاء يقضى على ما تبقى من جماله، وأجد أن الفندق الذى كان يستقبلنى عماله بالترحاب وهو فندق الكونتيننتال قد اختفى بكل ما

يحمله من ذكريات، وسور الأزبكية المصنوع من عربات الكتب القديمة المضاءة ليلا بقناديل الغاز، وكأنه قلادة تطوق جيد الميدان، فقد طابعه الرومانسي، وتحول إلى بوتيكات حديثة، من هذه البوتيكات التى تملأ القاهرة وتحمل أسماء أجنبية كريهة لا أدرى أى ذوق فاسد جاء بها، فكيف سأهتدى إلى قاهرتي، التى ربطتنى بها علاقة عشق منذ سنوات الصبا، والتى مازلت أسمع نداءها، وأتنسم عبيرها، خلف هذه المظاهر التى لم يألفها البصر. سوف أستعين بخبرة كاتب من عظماء كتابها هو يوسف ادريس، ممن استوعبوا روحها، وعبروا عن عمق التحولات التى طرأت عليها، ليكون دليلي، سألجأ إلى ناقد وفنان له معرفة بكواليسها الادبية والفنية، وسيصبر على رعونتى بما حباه ا من قلب كبير هو رجاء النقاش، وسأسأل فنانا له بصيرة نفاذة هو محيى الدين اللباد، لكى يأتى إلى عوني، فهل يستطيع هؤلاء الخبراء القاهريون من أصدقائي، أن يكونوا المفاتيح التى اهتدى بها إلى قلب هذه المدينة. كنت واعيا بحجم الازمة التى ستواجهنى إذا ما ذهبت إلى القاهرة بمفردي، ولذلك فقد سافرت إليها، صحبة سندباد مصرى معاصر هو الدكتور على شلش، فهو برغم

اقامته خارج مصر، شديد الارتباط بها، كثير التردد عليها، تجمعه أعمق الوشائج بأهل الفن والأدب من أبنائها، وبه سأستعين على اجتياز أولى عتباتها. وأستميح القارئ الكريم عذرا إذا تواصل حديث القاهرة، لأننى حريص على أن اشركه فى هذه المشاعر التى لا تفيض ولا تتدفق إلا عندما تهفهف أشرعة القلب، مبحرة إلى وطن القلب،

وأستميح القارئ مرة أخرى فى إضافة هامش لهذه الأسطر التى نشرت عام، ١٩٩٠ فقد رحل عن عالمنا كل من يوسف ادريس وعلى شلش، وكانت فجيعتى فيهما عظيمة. إنهما خسارة، على المستوى الشخصى والمستوى العام، يصعب تعويضها.

***

استمع الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى المطرب الجديد الذى جاء يطلب رأى الاستاذ فى صوته وما أن بدأ المطرب يغنى حتى سأله عبد الوهاب أن يغنى بصوت أقل

ارتفاعا، وكلما استجاب المطرب وغنى بصوت خافت سأله الموسيقار الكبير أن يخفض صوته أكثر ثم أكثر ثم أكثر.

إلى ان توقف المطرب وتعذر عليه الغناء، وعندها تنهد موسيقار الاجيال قائلا:

كده كويس !.

وبهذه الدعابة أفهمه أن يختار طريقا آخر غير هذا الطريق. ولابد أن المطرب الجديد خرج من لقائه بعبد الوهاب خائب الرجاء، دامع العين، ساخطا على هذا الاسلوب الذى لا يهادن ولا يجامل، متأسفا لهذه الآمال التى تبخرت قبل أن يبدأ خطواته الأولى على طريق الفن. ولكنه سوف يشكر ا كثيرا بعد ذلك لأنه سخر له فنانا كبيرا وانسانا كبيرا ومرجعا فى علوم الموسيقى والغناء يقول له هذا الرأى الصريح الذى ينجيه من اهدار اهم مراحل العمر فى الجرى وراء سراب لن يفضى به إلا إلى الفشل والاحباط وسيكون بامكانه أن يهتدى إلى المجال الذى ستثمر فيه جهوده وتنطلق منه مواهبه وامكاناته طالما أدرك مبكرا أنه لا يصلح للغناء. ونحن نعرف أن ملحنا قديرا مثل بليغ حمدى بدأ حياته هاويا للغناء بينما أعد عبد الحليم حافظ نفسه ليكون موسيقيا،

وأدرك كل منهما فى وقت مبكر مجاله الحقيقي، فكان تبادل المواقع بينهما لصالح الفن والابداع ومسيرة الموسيقى والطرب. والمؤسف أن اناسا كثيرون لا يجدون أحدا يخبرهم بحقيقة مواهبهم، وإذا أخبرهم فإنهم لا يريدون التصديق، ويواصلون المسير فى مجال لم يخلق لهم ولم يخلقوا له، والدليل على ذلك أن طريق الأدب والفن مملوء بأصحاب المواهب الخاملة الضعيفة الذين نراهم يتساقطون على جانبيه بعد أن ارهقهم المسير وعجزت امكاناتهم عن مواصلة السفر. لقد اختاروا طريق العمل الابداعى ظنا منهم إنه نزهة أو فسحة أو وسيلة للمباهاة وتحقيق الشهرة ونسوا انه تحصيل ومعاناة واجتهاد وعطاء مستمر لا يقدر عليه إلا من كان يملك موهبة واستعداداً فطريين. ولابد أنهم يتأسفون لأنهم اضاعوا العمر سدى وما عاد بامكانهم أن يبدءوا حياتهم من جديد مع مهنة أخرى ومجال آخر. ولو أراد ا أن يمنح كل البشر مواهب فى الموسيقى والغناء وكتابة الشعر لفعل، ولكن ارادته شاءت أن تخلق فوق الارض حياة تتعد مجالاتها وتتنوع ميادين العمل بها لكى يمكنها أن تتواصل وتستمر، ونحن بقدر ما نحتاج إلى من يطربنا بصوته وشعره

وموسيقاه فاننا نحتاج أيضاً إلى من يعالج أمراضنا ويطور مواردنا الغذائية ويشيد الابنية ويشق الطرق وينسج الألبسة، وكلها مجالات تحتاج إلى مواهب وملكات ومن لم يجد مكانه فى مجال ما، فسوف يلقاه فى مجال آخر، لأن كل انسان مسخر لما خلق له، وهذه هى القاعدة التى كثيراً ما نهملها ونتناساها لأننا نريد منذ البداية أن نخدع أنفسنا ونتجنب مواجهة الحقائق والنظر إليها، إلى ان نلتقى برجل من العارفين، يرفض أن يشارك فى حفل الخداع الذى أردنا أن نقيمه لأنفسنا، ويقول لنا ما قاله محمد عبد الوهاب لذلك المطرب عندما اعتبر صمته أجمل من غنائه. وأن نعرف ذلك فى وقت مبكر، خيرا من أن نعرفه بعد أن نكون قد اهدرنا سنوات العمر جريا وراء الوهم والسراب.

***

كأنه لا يكفى ما ترتكبه السيارات من مجازر وما تأكله من آلاف الضحايا كل يوم حتى يضـيفون اليهـا اختراعـا شيطانيا جديداً هو السيارة المفخخة، لتصبح السـيارة أكثـر ادوات العصر فتكا وتنكيلا بالإنسان وتحقق رقما قياسيا فـى

قوتها التخريبية يفوق قـوة الاسـلحة والمعـدات الحربيـة المصنوعة للسحق والمحق والدمار.

وبقدر ما قدمت السيارة من خدمات لانسان هذا العصر وما اسهمت فى حله من مشاكل، فقد اضافت إليه مشاكل جديدة لاحصر لها، ويكفى أن يدخل الواحد هنا بسيارته زحام المدينة لتنطلق فى رأسه عشرات الكوابيس بدءا من تفاديه التصادم بسيارة أخرى وتجنب الارتطام بالكتل البشرية التى تعبر الطريق إلى كابوس البحث عن مكان لوقوفها.

وبرغم الكوارث الناجمة عن هذا الاختراع، فقد اضحت السيارة محورا اساسيا من المحاور التى ترتكز عليها حياتنا ورمزا من رموز عصر السرعة والميكنة والتلوث.

إن أول شيء يحرص الواحد منا على اقتنائه هو هذه البهيمة الحديدية، وما أن تحقق لنفسك دخلا يكفى بالكاد لشرائها حتى تترك كل شئ، وتهمل كل ما تحتاجه أمك من أدوية وما يطالبك به أصحاب دكاكين البقالة والحلاقة من ديون، وتذهب راكضا إلى وكيل السيارات لدفع القسط الأول من ثمنها، وتقف أمام الوكالة رافعا رأسك إلى السماء، مالئا رئتيك بالهواء، شاعرا بالفخر والهناء وكأنك حققت أعظم

انجاز فى حياتك، لقد اصبحت لديك الآن سيارة تعيد إليك كرامتك المسفوحة على أبواب الحافلات وأرصفة القطارات ومواقف سيارات الأجرة، وصار عليك أن تتعامل مع الناس بأسلوب جديد يليق بانسان دفع القسط الأول من ثمن السيارة، ولكن هذا الزهو سرعان ما يتبدد ويتبخر فى الهواء عندما تكتشف أن حياتك قد تحولت إلى ارتهان كامل لهذه السيارة. فأنت تشقى وتتعب وتأتى بنقود لا تستطيع استخدامها أو الاستفادة منها لأنها سوف تذهب كاملة لسداد أقساط السيارة وشراء وقودها واصلاح ما يلحقها من عطب والانفاق على ما تجلبه إليك من ضرائب ومخالفات وتأمينات. وإذا كنت سعيد الحظ ونجوت من حادث أو مشاجرة تؤدى بك إلى السجن أو المستشفي، فسوف تكتشف أن مسيرة الانفاق لا تنتهى ولا تتوقف، لقد اكملت سداد الاقساط ولكن مصاريف السيارة تزداد بسبب القدم والاستهلاك، ومشاوير زياراتها إلى ورش التصليح تتكاثر يوما بعد يوم إلى أن تصل إلى الحد الذى يوجب رميها وشراء سيارة أخرى بدلا منها لتعود من جديد إلى الدوران فى ذات الحلقة المفرغة التى لا تنتهي.

حتى إذا ما تقدم بك العمر كثيرا وازداد دخلك قليلا بحيث صار بامكانك ان تجد فائضا تنفقه على شراء المجلات الطبية التى صرت شغوفا بالاطلاع عليها بعد ان ابتليت بالعلل والامراض التى كانت السيارة من أهم اسبابها، ظهر لك طفل بلغ سن الفطام وجاء يطلب هو الآخر سيارة يمارى بها غيره من أطفال، ولأنه مازال لم يتعلم النطق فأنت تظنه يريد لعبة يلعب بها، وما أن تشتريها له حتى يرمى بها فى وجهك ساخرا، ضاحكا من غفلتك وغشامتك لأنك لاتعرف أنهم اباحوا رخص القيادة لكل من بلغ سن الفطام، وتزداد دهشتك عندما تعرف إنه يفقه فى أنواع السيارات أكثر منك لأنه كان يتلقى فى بطن أمه دروسا خصوصية عن أشكالها وموديلاتها وأنه أحضر كراسا من كراريس الدعاية التى تنشرها الشركات ليشير عليك بالسيارة التى يريدها محددا طرازها ولونها وقوة محركها، مشترطا بأن تأتى كاملة لا ينقصها التكييف ولا راديو الهاى فاى ولا السقف المتحرك. وتظن أن سقف الكون هو الذى يتحرك الآن وأن القيامة سوف تقوم قريبا وان عطبا قد اصاب الدنيا حتى جعل طفلا فى سنه يطلب سيارة قبل أن يتعلم النطق. ثم تزول دهشتك

عندما تخرج إلى الشارع وتكتشف أن اطفالا مازالوا يرتدون حفاظاتهم ويضعون المراضع فى أفواههم يقودون السيارات من كل شكل ولون ويملئون الدنيا زحاما وضجيجا.

***

بمثل ما تزحف العمارات على القرى لتعيد تشكيلها وتمحو خصوصيتها وتمنحها طابعا يتفق ويتشابه مع قرى العالم الأخرى، فهى تزحف أيضاً على الاحياء السكنية القديمة المكونة من بيوت أرضية داخل المدن لكى تقضى على ما لديها من تميز وما تضمه من مساحات خضراء، ولكى تصبح هذه الصناديق الاسمنتية المهولة احدى اهم علامات هذا الزمان، وتأتى »الشقة« التى صارت تعنى فى أغلب لغات العالم معادلا للبيت، لتقدم لعالمنا نسقا دوليا للبيت العصري، وسواء كنت فى الشرق أو الغرب، فى أقصى شمال الكرة الأرضية أو جنوبها، فإن السكن الغالب لبنى البشر أصبح هذه الشقة التى تتشابه فى شكلها ومحتوياتها وهندستها مع أية شقة أخري، غرفة استقبال تضم صالونا

وتلفازا وأدوات اكسسوار أخري، أوان أو لوحات أو كتب أو أطباق، فهذه الأدوات لا تختلف من شقة إلى أخرى إلا بقدر اختلاف حالات اليسر أو العسر، وفى مكان ما طاولة للأكل صارت توحد أسلوبنا فى تناول الطعام، وبجوارها مطبخ مجهز بذات التجهيزات التى نجدها فى كل قرية أو مدينة، وثلاجة تحتوى على طعام معلب يتشارك جميع أهل الأرض فى استهلاكه. ويأتى الليل فنهجع إلى غرف نوم تكاد تكون متشابهة فى كل بلاد الدنيا، وبجوار رؤوسنا مذياعا ينقل لنا حدثا دوليا نشترك جميعا فى سماعه، ويكون موضوعا فى صباح اليوم التالى لتعليقاتنا وأحاديثنا مع الاصدقاء، ويأتى الصباح فنرتدى ملابس تكاد تكون متشابهة ونضع على وجوهنا ماء الكولونيا الذى تصدره باريس إلى كل الشعوب، ونظر إلى ذات الساعة السويسرية التى تزين معاصم ملايين البشر فى أصقاع الأرض بمثل ما تزين معصمنا، ونركب ونحن فى قرية افريقية سيارة هى ذاتها التى يركبها مواطن فى الهند أو اليابان أو بيرمودا، ونمر بمحطة وقود هى ذاتها التى يمر بها كل مواطن اخر فى تلك البلاد، ونتبادل مع عاملها ذات الكلمات التى يتبادلها مع ذاك المواطن، ونذهب

إلى مكتبنا فنستخدم مصعدا هو ذاته الذى تستخدمه كل العمائر فى عالمنا، ونجلس إلى مكتب فوقه جهاز الهاتف الموصول بكل الهواتف فى الكرة الأرضية، وبجوارنا فى الغرفة جهاز التلكس تدق عليه فتاة فى طوكيو فنسمع دقات أصابعها فوقه ونحن فى مكتبنا بالقرن الأفريقي، ونذهب فى تعاملنا اليومى إلى مكتب أو مصرف أو سفارة أو وكالة أو عيادة فنجدها تستعمل اسلوبا واحدا فى كل بلاد الدنيا وتعتمد ذات النماذج وتستخدم ذات المراجع والجداول وتتبع نظاما موحدا فى تعاملها مع زبائنها فى كل بلاد الدنيا.

ونكتشف أثناء ذلك كله أن حدودا كثيرة قد تهاوت بين سكان العالم بفضل مكتسبات العصر وانجازاته الحديثة، وأن البشر صاروا يملكون من الروابط والأواصر مما يجعلهم أشبه بسكان قرية واحدة، ونتساءل إذا ما كان هذا التوافق فى أنماط الحياة التى نحياها وهذا التطابق فى ما نشاهده ونسمعه ونقرؤه ونستعمله ونرتديه وهذا التشابه فى أساليب العمل والعلم والسفر والنوم واليقظة سيتيح بالضرورة مناخا جديدا يوحد رؤيتنا لمشاكل العالم ويؤكد انتماءنا للأسرة البشرية

ويربى فى نفوسنا ذلك المواطن العالمى الذى يؤمن بأن العالم قريته.

هل سيواكب هذا التطور فى التقنيات وأساليب المعيشة تطوراً فى المفاهيم والأفكار والمعتقدات والسلوك، وهل نستطيع بفضل هذه الآفاق الجديدة التى اتاحها لنا العصر أن نتجاوز ترسبات الماضى الذى يحفل بعوامل التفرقة والانقسام، ونصنع متحدين متكاتفين عالما ينعم بالرخاء والأمن والسلام؟

هل سيحدث ذلك، أم ستظل هذه الافكار، برغم كل هذا التقارب والتوافق بين البشر، مجرد أحلام تنتقل من جيل إلى جيل دون أن يتاح لها فرصة التحول إلى وقائع وحقائق؟

***

إنه رجل ناجح بمقاييس النجاح هذه الأيام.

يرتدى ألوانه ويمضى مختالا بين الناس، متألقا، متأنقا، مزهوا بهذا المركز الوظيفى الخطير الذى يحتله، سعيدا بهذه الحفاوة التى يقابله بها الحجاب والسعاة على أبواب إدارته،

والتحية التى يزفه بها أصحاب الحاجات فى الطريق من سيارته إلى مكتبه.

يرتاد المنتديات، ويقابل الصحفيين، ويقف خطيبا فوق المنابر، فيستعير صوتا غير صوته، وحنجرة ليست حنجرته، ويتكلم بلسان غير لسانه، ويقول كلاما مرصوفا جميلا لكنه ليس كلامه، وإنما كلام الوظيفة، ورأى المؤسسة التى يخدمها، ورأى رئيسة فى العمل الذى أهداه هذه الوظيفة.

ولكن

أين تنتهى المؤسسة ويبدأ الإنسان؟

أين تنتهى الأقنعة وتبدأ القناعات؟

أين ينتهى كلام رئيسه فى العمل ويبدأ كلامه هو؟

أين ينتهى كلام الناطق الرسمى ويبدأ كلام الناطق الشخصي؟

لقد اختفت من حياته الحدود بين كل هذه الأشياء، لقد استخدم الرجل كل مهاراته لكى يلعب دوره جيدا، واندمج اندماجا كاملا فى هذه الشخصية التى يمثلها حتى نسى صوته ووجهه ولسانه.

نسى قلبه وعقله وضميره.

وأذاب شخصيته فى شخصية الوظيفة فلم يعد لها وجود أو حضور.

لقد كانت له آراء وأفكار وأشياء يؤمن بها لا تتفق جميعها مع ما تقوله الجريدة الرسمية.

ولكن هذه الاشياء كان يقولها عندما كان يجلس على مقاهى الرصيف مع بسطاء الناس، وعندما انتقل من المقهى إلى هذا المركز الوظيفي، اجتهد الرجل فى طمس واخفاء كل تلك الآراء والافكار التى لم تعد تخدم أغراضه، اهال عليها التراب وغطاها باليابس من الاعشاب كمن يغطى آثار جريمة يخشى أن يكتشفها الناس.

لبس أرديته وألوانه الجديدة وإذا تغيرت السياسة تغير معها وإذا سمع تعليقا فى الاذاعة يخالف الرأى الذى قاله منذ دقيقة واحدة أسرع إلى قول كلام جديد يتفق مع تعليق الاذاعة.

يحمل فى جيبه مجموعة من الشعارات والعبارات الجاهزة التى اقتبسها من افتتاحيات الصحيفة الرسمية، والتزم بها، لا يحيد عنها ولا يضيف اليها ولا ينتقص منها، فهو مثال الوفاء والولاء والطاعة والاخلاص، لا يؤمن بالاجتهاد

أو الخروج على النص أو ارتجال الكلمات التى لم يقلها المؤلف.

والسؤال الذى أحب أن أقف عنده اليوم هو إلى أى مدى يستطيع أى انسان فى الكون أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل ويمضى متنكرا لذاته ماسخا شخصيته الاصلية وناقلا فوق قلبه وضميره ووجدانه ولسانه أفكارا وآراء تتناقض مع آرائه وافكاره وشخصية أخرى بديلة لشخصيته الحقيقية.

وإذا كان بامكان هذا الإنسان أن يكذب على الآخرين إلى مالا نهاية، فإلى أى مدى يستطيع أن يكذب على نفسه، أو يمتنع عن الاستماع إلى أى نداء داخلى يتصاعد من عقله وقلبه ووجدانه؟

إنه رجل ناجح بمقاييس النجاح هذه الايام.

يرتدى ألوانه ويمضى مختالا بين الناس، متألقا، متأنقا، مزهوا بهذا المركز الوظيفى الخطير الذى يحتله، سعيدا بهذه الحفاوة التى يقابله بها الحجاب والسعاة على أبواب مكتبه.

ولكن هل يستحق نجاحا كهذا النجاح ثمنا كهذا الثمن؟

***

سوف يكون غريبا أن نجد بائعا فى السوق يرفع عقيرته داعيا الناس لشراء التفاح الذى يبيعه ثم نكتشف عندما نذهب إليه أن ما يبيعه هو البصل. وإذا وجدنا مثل هذا البائع فسوف نعتبره رجلا عبيطا أو مجنونا لأنه يقوم بالدعاية لبضاعة لا يملكها ويبيع بضاعة يخجل من المناداة عليها.

ولكن ماذا نعتبر أولئك الناس الذين يدخلون أسواق الفكر والثقافة والسياسة ويرفعون شعارات لا يطبقونها وإنما يطبقون عكسها وينادون على بضاعة لا يبيعونها وإنما يبيعون شيئا مخالفا لها. إننى لا أرى فرقا كبيرا بينهم وبين ذلك البائع الذى ظن أنه بمناداته على التفاح سوف يضمن جمهورا لشراء البصل، الفرق الوحيد بينهم وبينه، أن بائع الخضار أو الفاكهة سوف يكشف الناس أمره ويمتنعون عن شراء بضاعته، بينما يأخذ تجار الشعارات وقتا قبل أن يكشف الناس كذبهم وغشهم.

ولاشك أن تجار الشعارات أكثر مكرا ودهاء من صاحب عربة الخضار، فهم عندما يبيعون البصل باسم التفاح يلجأون إلى كل الحيل والاساليب لإخفاء غشهم، إنهم يعبئون

البصل فى صناديق رسم فوقها التفاح ويتفننون فى وضع الاغلفة التى تخبئ شكله ورائحته عندما يبيعونه إلينا بحيث لا نكتشف أمره إلا بعد أن نكون قد اشتريناه منهم ودفعنا لهم الثمن ووقعنا ضحية غشهم واحتيالهم. والاغرب من كل هذا أنه مع اكتشاف الناس لغشهم وخداعهم يأتون مرة أخرى إلى السوق ويقفون فى ذات المكان ويضعون أمامهم البصل الذين يخبئونه فى صناديق التفاح ويرفعون عقيرتهم بمناداة من يبتغى شراءه. معتمدين على أن هناك دائما انسانا غافلا يأتى إلى السوق لأول مرة لا يدرى شيئا عن لعبتهم وسوف ينطلى عليه خداعهم. ومهما كان عدد الناس الذين كشفوا أمرهم كبيرا، فإن هناك دائما زبونا جديدا لبضائعهم، تساعدهم فى ذلك عوامل كثيرة من أهمها أن هذه الأسواق لا تحكمها القوانين التى تعاقب الخادعين وتحمى المخدوعين فانتشر فيها الدجل والكذب والغش والتزوير دون حسيب أو رقيب. وما يجب أن يطالب به ضحايا تجار الشعارات هو أن تطبق القوانين التى تحم أسواق الفاكهة والخضار على أسواق الفكر والثقافة والسياسة بحيث يمنع القانون بائع البصل أن يسميه تفاحا ويمنع بائع التفاح أن يسميه بصلا، وسوف لن يتضرر

كثيرا هؤلاء التجار، فنحن بقدر حاجتنا إلى التفاح نحتاج أيضاً إلى البصل الذى سوف نشتريه منهم ولكن بثمن أرخص كثيرا من ذلك الثمن الذى طالبونا بدفعه عندما سموه تفاحا. مع الاعتذار الشديد لكل تجار الخضار.

***

غالبا ما تعطينا المدن الكبيرة انطباعا خاطئا عن الخصائص والشعوب والاوطان التى تنتمى اليها. بدليل ما أن ننتقل خارج هذه المدن ونلتقى بأبناء ذلك الشعب فى القرى والأرياف والمدن الداخلية الصغيرة حتى نخرج بانطباع يتناقض مع الانطباع الذى اعطته لنا المدن الكبيرة.

ونكتشف أن لندن مثلا لا تصلح أن تكون معيارا للحكم على سلوك وخصائص وطباع أبناء الجزر البريطانية، وكذلك الأمر مع باريس أو روما أو موسكو أو غيرها من مدن الدنيا. وبرغم أن هذه العواصم العالمية تحتوى أخلاطا من البشر الذين يأتون اليها من كل بقاع الارض ويشكلون فى بعض مناطقها نسبة تفوق نسبة أهل البلاد الاصليين، فلا

أعتقد أن هذا هو السبب فى تزويدنا بالانطباعات الخاطئة، لأن انطباعا مثل هذا يمكن أن نخرج به حتى ونحن نزور مدينة داخلية كبيرة تزدحم بسكانها من أهل البلاد ولا علاقة لها بالسياحة أو التجارة الخارجية أو الجاليات الأجنبية. إن القضية أولاً وأخيراً هى قضية هذا الزحام الذى صار يفرض على سلوك الناس أخلاقيات أخرى يتعاملون بها ليست أخلاقياتهم وإنما اخلاقيات صنعها العصر الحديث واعطاها طابعا عاما تكاد تشترك فيه كل مراكز الكثافة السكانية فى الدنيا. يشتد التنافس بين الناس وتقوى وثيرة الصراع، وينتشر أسلوب المقايضة والمنافع المتبادلة، قضاء مصلحة لك بقضاء مصلحة منك، اشترى لك كأسا من الليمون لتعزمنى على قدح من القهوة، كل شيء له ثمن، وكل شيء له مقابل، حتى الوقت له ثمنه فى حمى هذا التسابق والفوز بمكان أكثر تقدما بين الصفوف، ان هذا الذى يجرى ليلحق بالقطار قد لا يستطيع أن يمنحك ما تريده من وقت وأنت تسأل عن موقع العيادة التى تبحث عنها، حتى لو رآك تنزف دما فهو لا يستطيع شيئا أكثر من أن يشير عليك باكتراء سيارة أجرة تقلك إلى ذلك المكان، وأن عليك أن تشترى

مشورة كهذه بالمال، وإذا أردت دليلا يقودك فى جولاتك فهو أيضا موجود يريد ثمنا وحتى العيادة التى تذهب اليها لاسعافك تريد مالا هى الأخرى، وبالمال سوف تجد من يؤانسك ويرافقك ويقضى معك سهرتك وهو ينظر إلى ساعته لأن لكل دقيقة ثمنها، أما بغير ذلك فإنه سيكون متعذرا على سائح مثلك انشاء العلاقات أو الالتقاء بالمناطق الدافئة فى قلوب الناس من رجال ونساء، لأنها مناطق بعيدة وصعبة المنال بعكس ما يحدث فى القرى وخارج هذه المدن الكبيرة حيث تختفى هذه الضغوط والالتزامات التى يفرضها الزحام وحيث لا يكتفى الإنسان الذى تسأله عن مكان ما بالاشارة إلى الطريق الذى يقوده إليه وإنما يرافقك بنفسه إلى ذلك المكان وقد تكون مناسبة لإنشاء صداقة يظهر لك خلالها شيئا من كرم أهل تلك القرى واهتمامهم بالغرباء.

الزحام إذا هو العلة وكلما ازداد الزحام كلما تناقصت مساحة المودة والتراحم بين الناس، ولسنا بحاجة إلى أن نذهب إلى عواصم العالم الكبيرة حتى نصل إلى هذه النتيجة، فهى ماثلة أمامنا فى المدن التى نقيم بها أو ننتمى إليها، فالفرق يبقى شاسعا بين أسلوب التعامل الذى نلقاه لدى أهلنا

فى القرى والارياف وما ينشأ هناك من تراحم وتواصل بين الناس، وبين ما يسود علاقاتنا فى المدن من شد وجذب وتوتر وأزمات، وإذا كنا نسمع من أهلنا عن تلك الحكايات التى تتحدث عن آباء لنا وجدود كانوا لا يتناولون طعام العشاء إلا إذا ذهبوا إلى الجامع يبحثون عن غريب يستضيفونه على موائدهم، فقد بات مثل هذا الحديث فى مدننا العصرية ضربا من الخرافات والاساطير، إنه الزحام مرة أخرى يصنع اخلاقا جديدة لا علاقة لها بما عرفناه من تقاليد الكرم والضيافة والاحتفاء بالغرباء.

ولأن العالم يزداد مع الأيام ازدحاما فإن اخلاقيات التوادد والتراحم سوف تزداد مع الايام ندرة وابتعادا.

***

فى حين تنشئ كل فئات المجتمع الروابط والاتحادات والنقابات التى تنظم صفوفها وتدافع عن حقوقها وتحقق لها المكتسبات عاما بعد عام، فان هناك فئة من البشر موجودة بيننا منذ أن وجد البناء والعمران دون أن تفلح فى انشاء نقابة

أو رابطة تحقق أدنى مستوى من التنظيم لاصحابها، فبقيت فريسة سهلة للابتزاز والاستغلال، هى فئة الباحثين عن سكن.

تكبر المدن وتزداد اتساعا وازدحاما بالسكان وتتفنن شركات البناء فى اشادة العمائر والبنايات التى تطاول السحاب، ولكن فئة الباحثين عن سكن لا تتأثر بكل هذا التقدم والتعمير، فهى تظل موجودة على الدوام، لا تتناقص وإنما تزداد، يطوف اهلها احياء المدن الكبيرة ويتسكعون عبر شوارعها الخلفية باحثين عن أية نافذة مغلقة فلعلها تمثل أملاً فى بيت يسكنونه، ويترصدون للبنايات التى فى طور الانشاء علهم يجدون مقاولاً يقبل منهم عربونا لشقة يكترونها، وتنشأ آلاف المكاتب والشركات التى تتاجر بأزمتهم وتحقق الأرباح الطائلة من وراء معاناتهم ومحنتهم، دون أن تجد مشكلتهم حلا نهائيا، ولن تجد، فهى ستبقى ما بقيت فى الدنيا أبنية وعمارات، وستبقى هذه الفئة دائمة التجدد والتغيير ما أن يخرج منها إنسان وينضم إلى دنيا الساكنين الهانئين حتى يأتى إنسان آخر يحمل قلقه ومعاناته ويعلق هو الآخر ابصاره بالنوافذ والشرفات باحثا عن بيت يؤويه.

وسر إشفاقى على هذه الفئة وغيرتى على حقوقها الضائعة، اننى أحد المنتمين الدائمين اليها، وما ان أخرج منها بضعة أشهر أو أعوام حتى أعود اليها مرة أخري، وكأنها صارت ادمانا لا أبرأ منه، ولذلك فقد نبتت فى ذهنى فكرة أن ننشئ جمعية أو نقابة تنظم صفوفنا وتتولى الدفاع عن حقوقنا وتناضل فى سبيل توفير شروط أفضل ندخل بها الصراع مع أصحاب العقارات والأملاك وتجار المحن والازمات من اصحاب الوكالات والدكاكين، ترفع عنا الضيم، وتحمى أهل فئتنا من الاستغلال والابتزاز. يدفعنى إلى هذا التفكير ادراكى بأهمية هذه الفئة وضخامة اعدادها وتنوع المهارات والكفاءات من المنتمين اليها، ومن العار أن تبقى مشتتة الجهود برغم هذه الامكانيات الهائلة التى يملكها اهلها والتى لو توحدت لقلبت الموازين فى عالم المضاربات العقارية، ولأرعبت الشركات التى تتاجر بهذه الازمة ولجعلت الباحثين عن سكن قوة كبرى لن تكتفى بالبحث عن حلول لأزمتها السكنية وإنما ستحقق حضورها الفاعل فى مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة، بحيث تسخر العلماء والأدباء والشعراء لخدمة أهدافها وتأليف الكتب والبحوث عن

تاريخها والقصائد والملاحم والمسرحيات التى تشيد بنضال أهلها وترغم الاقتصاديين على تغيير اساليبهم الاقتصادية بما يتفق مع توجهات أبناء هذه الفئة، وتجعل السياسيين يذعنون لتعليماتها ويمتثلون لأوامرها لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك اسقطتهم وانتخبت حكاما آخرين يطيعونها، بفضل ما توفر لها من امكانيات وما ينضوى تحت لوائها من بشر. وستكون جمعية عالمية لها فرع فى كل مدينة من مدن الدنيا، قادرة على أن تؤدى دورا فى السياسة الدولية وخدمة السلام العالمى والوفاق بين الشعوب لما يربط عناصرها من وشائج تتجاوز الفوارق العرقية والعقائدية لتجعلهم أشبه بأمة واحدة يوحدها البحث عن سكن.

ولكن مشكلة هذه الجمعية العالمية ان وجودها سيكون مرهونا بوجود أزمتها واستمرارها، لأنها ما أن تصبح قوة قادرة على فرض حل لمشاكلها وتوفير مساكن لأبناء فئتها حتى يبدأ وجودها فى الاختفاء. وهى محنة حقيقية تجعلنى أتردد كثيراً قبل أن أطالب رفاقى الباحثين عن سكن بإنشاء هذه الجمعية التى سيكون نجاحها سببا فى اختفائها وموتها.

***

أعرف أناسا ينتسبون لأوساط تجارية لا يطيقون البقاء فى بلدان اقامتهم أكثر من أسبوع أو أسبوعين ولا يعودون من رحلة حتى يبدءوا السعى للحصول على رحلة جديدة موفدين من مؤسساتهم التجارية أو مدعوين من قبل هذه المعارض الدولية التى تقام دوريا فى كل مدن العالم. فهم شغوفون بالسفر والترحال إلى حد أنهم يفضلون قضاء أعمارهم متنقلين بين موانئ العالم الجوية لا يحطون فوق الأرض حتى يعاودوا الطيران مرة أخرى.

وفى الحقيقة أن ما يفعلونه ليس سفرا بمعنى السفر الذى يتيح لنا رؤية العالم والالتقاء بتجارب البشر واكتساب الخبرات والمعارف وارضاء فضولنا لمعرفة الحياة التى يعيشها الناس فى اركان الدنيا الاربعة، والانتفاع بما نسمع ونشاهد ونقرأ ونحن نجوب هذه البلاد البعيدة، لأن هؤلاء المسافرين أبداً لا يشاهدون شيئا ولا ينتفعون بشيء إذ أنهم لا يقيمون فى المكان الذى يذهبون إليه ولا يطيقون البقاء فيه لأكثر من يوم أو بعض يوم ويبددون أعمارهم أمام نقاط التفتيش وحرس الجمارك، إنه ليس ذلك السفر الذى يكون

وسيلة لتحقيق غاية وارضاء طموح واطفاء شوق عارم للمعرفة والتجربة والمغامرة وإنما سفر لوجه السفر، سفر لا غاية له ولاهدف، فقد تحول بحد ذاته إلى هدف وغاية، وترى الواحد منهم يسعى للحصول على وظيفة تقتضى كثرة السفر، وإذا كان العمل يحتاج إلى رحلة كل شهرين أو ثلاثة أشهر فهو يتفنن فى اختلاق المناسبات ليجعل السفر مرة كل أسبوع إن استطاع إلى ذلك سبيلا، وما أن يصل إلى محطته الاخيرة حتى يبدأ بمباشرة اجراءات العودة وتكون الحصيلة أن ما يقضيه داخل المطارات وعلى مقاعد الطائرات أضعاف الوقت الذى يقضيه فى البلاد التى يسافر اليها، ومع ذلك فهو سعيد بهذا الشقاء ويبذل أقصى مساعيه للمحافظة عليه فقد تحول هذا السفر إلى هوس يسيطر على عقله وقلبه ولا يبتغى منه فكاكا، وإذا كان السفر وسيلة لاكتشاف الذات عندما نلتقى بصورتنا معكوسة فى مرايا الآخرين الذين يختلفون عنا طباعا ومعيشة وفهما للحياة، فهذا السفر غالبا ما يكون هروبا من الذات، وهذا ما يمكن أن نتكهن به كتفسير لهذا السلوك.

إن النفس البشرية أكثر تعقيدا من أن نحيط بكل أسرارها أو نفهم كل دوافعها، والناس يختلفون من ناحية التكوين النفسى باختلاف ملامحهم وبصمات أصابعهم، ولقد اخترع الإنسان الذى لا يقوى على مواجهة نفسه عشرات الوسائل للهروب من هذه المواجهة، ولعل هذا النوع من السفر أكثرها فاعلية وابلغها أثرا فى تحقيق هذه الغاية، ولا أدرى لماذا نهرب من مواجهة أنفسنا وكأن هناك أشباحا بداخلنا تنتظر أى سانحة للانقضاض علينا، فكلنا بطريقة ما نخشى هذه المواجهة مع الذات، ونسعى لتأجيلها ما أمكننا ذلك.

ان بعضنا ممن تحول الامر بالنسبة لهم إلى حالة مرضية، يهربون من مواجهة الذات إلى ادمان عادة سيئة ومدمرة كالقمار أو الخمر أو المخدرات، وبعضنا ممن أرادوا الاحتفاظ برؤوسهم سليمة يهربون منها بالاستغراق فى العمل، وتراهم يفتعلون اعمالا ينشغلون بها عن قضاء الاجازة أو عطلة الاسبوع، وبعضنا الآخر ممن هم أكثر ذكاء يهربون منها بالاستغراق فى السفر، وإذا كانت أغلب المهن تتيح فرصة للهروب من مواجهة الذات فإن مهنة الكتابة

تفرض على صاحبها إذا اراد أن يكون صادقا وأمينا مع مهنة القلم، مواجهة دائمة مع الذات ومراجعة يومية لأفكاره وقناعاته، ولعل السبب فى كثرة الامراض النفسية والعصبية التى تصيب الكتاب والمفكرين ترجع إلى هذه المواجهة القاسية والدائمة مع الذات.

***

هناك دائما أصل وصورة لكل انسان. أصل يعرفه بعض من تربطهم به صلات وعلاقات حميمة وصورة هى التى يتداولها عنه الناس أو يسعى هو لاشاعتهم فيما بينهم. وقد يبلغ هذا الإنسان درجة من الصدق فى تعامله مع الآخرين تجعل الصورة متطابقة مع الاصل، وقد يسعى بنفسه إلا أن يعطى صورة مخالفة ومناقضة لصورته الاصلية.

وإذا كان هذا القول يصدق مع الاشخاص العاديين فهو يصدق أكثر مع الشخصيات العامة من السياسيين وقادة الرأي. فهؤلاء الأشخاص العامون الذين لا يراهم الناس إلى خطباء فى المحافل العامة أو متحدثين عبر الاذاعات

والمقابلات الصحفية ولا يعرفونهم إلا من خلال ما تقوله عنهم الوسائط الاعلامية أو تذكره الكتب التى تتناول حياتهم وأفكارهم، هؤلاء الاشخاص تنشأ لهم فى اذهان الناس صورة تقترب أو تبتعد عن الاصل ولكنها غالبا ما تحتفظ بدرجة من الاختلاف عنه.

وفى تعامل الناس مع هؤلاء الاشخاص العامين يميلون عادة إلى وضعهم فى قوالب جاهزة فيسمون هذا رجعيا والآخر تقدميا ويسمونه يساريا والآخر يمينيا ويضعونه فى صف الصقور أو يضعونه فى صف الحمائم ويلبسونهم جميعا أردية من صنعهم ويرسمون لهم صورة ثابتة دون اعتبار لما يحدث فى النفس البشرية من تفاعلات وما يطرأ على هذا الإنسان من حالات تتنوع فيها مواقفه بتنوع الظروف والملابسات وما يطرأ على افكاره من تطور أو تغيير ودون اعتبار لمدى اختلافه عن بقية من يصنفونه معهم، من يساريين أو يمينيين، بل كثيراً ما نرى الناس يرسمون أكثر من صورة للشخص الواحد ففى حين يعتبره قسم من الرأى العام مثالا للنزاهة والاخلاص والاجتهاد والوطنية إلى آخر ما فى القاموس من كلمات تدل على الخير

والصلاح نجده فى نظر قسم آخر مثالا لكل الخصال المناقضة للخصال التى أضفاها عليه القسم الأول.

ويزودنا التاريخ بشواهد كثيرة عن درجة التناقض بين الاصل والصورة فى بعض الاحيان، فما أكثر الاشخاص القياديين ممن ادينوا فى فترة تاريخية ما، باعتبارهم مثالا للسقوط والخيانة وتناقل الناس صورة بشعة عنهم فاستحقوا غضب معاصريهم وسخطهم ثم إذا بهم فى مرحلة أخرى يبرءون من التهمة التى اسندت اليهم ويعاد لهم اعتبارهم وتظهر لهم صورة جديدة نبيلة تخالف الصورة السابقة.

وشخصيات قيادية أخرى عقدت لها ألوية المجد والبطولة ثم اتضح بعد مرور الاعوام انها ارتكبت من المخازي ما يورثها الخزي والعار.

وإذا كان بعض هؤلاء الاشخاص العامين يتحملون مسئولية الصورة المخالفة لحقيقتهم التى يتلقاها الناس لأنهم يمالئون أحيانا الرأى العام ويسعون لشراء الشهرة الشعبية لتحقيق الفوز والنجاح حتى لو أدى الامر إلى ارتداء الاقنعة والظهور بمظهر مخالف لشخصيتهم ارضاء للآخرين، فإن هناك حالات أخرى يتطوع فيها الناس أنفسهم لاضفاء صفات

خارقة على شخص ما كما حدث مع نهرو عندما وجد بعض الاوساط الشعبية الهندوسية ترى فيه تجسيداً لرموز ومعان دينية مقدسة وتسعى لتأليهه، فحارب هذا الاتجاه حتى قضى عليه.

وهذا يحدث فى العلاقات الخاصة أيضاً عندما نجد الحبيب يضفى وهو فى ذورة الحب أوصافا على حبيبته تمنعه من أن يراها على حقيقتها إلا بعد انتهاء هذه الفورة العاطفية الجامحة.

وإذا انتقلنا من الشخصيات العامة والخاصة إلى الامم والشعوب فسنجد اننا كثيراً ما نلتقى بصورة يتداولها الناس عن شعب ما تختلف عن صورته الحقيقية عندما نزوره فى بلاده ونلتقى بأهله ونتعرف عليه عن قرب. ولا أجد فى هذا السبيل مثالا أكثر وضوحا من الصورة التى تسعى أجهزة الاعلام الغربية والدائرة فى فلك الصهيونية لالصاقها بالمواطن العربي. فقد دأبت هذه الاوساط الاعلامية من صحف واذاعات مرئية وأفلام تنتجها الشركات الصهيونية على تقديم العربى فى صورة مشوهة ممسوخة وغرسها فى أذهان الشعوب الأخرى. ويتحول العربى الذى كان على مدى

مئات السنين وحتى عصرنا الحاضر ضحية لعنف الدول الاستعمارية وارهابها وهمجيتها ثم ربيبتها الصهيونية إلى الرجل الارهابي، المتوحش، المتخاف، الذى لا يؤمن إلا بالعنف ولا يعرف إلا الرغبة فى تدمير العالم. صورة مناقضة لصورة الإنسان العربى ببساطته واصالته وحضارته ستجد على مدى الايام من يصدقها إذا لم نستنفر كل مؤسساتنا السياسية والفكرية والثقافية والاعلامية لتقديم الوجه الحضارى لبلادنا وتعريف الشعوب الأخرى بالصورة الحقيقية لأبناء أمتنا.

***

لاشك أن البطالة التى وصلت إلى أرقام قياسية تمثل الآن أكبر العلل الاقتصادية التى اصابت معظم البلاد الغربية. ولذلك فقد صارت هذه المشكلة هما اساسيا لكل حكومة من حكومات هذه الدول. وقضية رئيسية تتبارى الاحزاب فى وضع البرامج للتغلب عليها. وبرغم خطورة هذه الظاهرة التى فشلت كل برامج الاصلاح الاقتصادى فى علاجها

وبرغم ما يترتب عليها من آثار سلبية على المجتمع مثل ارتفاع معدلات الجريمة فى عواصم الغرب الكبرى، فإن ما يقوله بعض المعلقين السياسيين بإذاعتنا وصحافتنا من انها علامة انهيار وتدهور هذه المجتمعات قول مبالغ فيه، ولابد من فهم هذه المجتمعات فهما صحيحا حتى نستطيع التعامل معها من موقع المعرفة والتحليل وليس من موقع المبالغة وخداع الذات، لأن هذه البطالة فى حقيقتها إنما هى احدى المشاكل الناتجة عن النمو والتقدم، ويجب أن نأخذ فى الحساب أيضاً أن هؤلاء العاطلين إنما هم مجموع القوى المؤهلة للعمل من نساء ورجال، وليسوا رجالا فقط كما يذهب فى أذهاننا عندما نقيسهم بمقاييس المجتمعات التى ننتسب إليها وما تزال تعانى من امتناع ما يقرب من نصف قواها المنتجة عن العمل بسبب الاوضاع المتخلفة التى تعيشها المرأة، وهى حسبة قد تجعلنا نظهر أكثر ابتلاء بالبطالة من هذه المجتمعات.

ومن ناحية أخرى فإن هذه البطالة لم تكن بسبب الكساد الاقتصادى كما كان يحدث فى مراحل سابقة، ولم تكن على حساب انخفاض نسبة الانتاج، إنما جاءت نتيجة لهذه الثورة

العلمية فى مجال العقل الآلى والتوسع فى استخدامه توسعا هائلا إلى درجة أن بعض المؤسسات تدفع مبالغ طائلة للعمال الذين تم تسريحهم توازى ما كانت ستدفعه لهم لو استمرت فى استخدامهم وذلك مقابل أن تسمح لها الاتحادات بادخال العقل الآلى كبديل لهؤلاء العمال، كما حدث مع بعض المؤسسات الصحفية الشهيرة فى بريطانيا.

وبرغم أن هؤلاء العمال يتقاضون منحا من الدولة أو منحا من المؤسسات التى استغنت عن خدماتهم كما يتمتعون بمجانية التعليم والعلاج وتسهيلات أخرى فى السكن والخدمات العامة إلا أن وجودهم دون عمل يشكل قضية أساسية من القضايا التى يدور حولها النقاش وتجعلها البرامج الانتخابية محورا للأحزاب المتنافسة على السلطة.

لأن هذا العامل أو المهندس أو الموظف الادارى الذى انضم إلى طوابير العاطلين لا يريد أن يكتفى بالحد الادنى من المعيشة الذى تؤمنه له الدولة وإنما يريد عملا يسعى من خلاله لتطوير مستواه المعيشى واثبات مهاراته والارتفاع بها وتحقيق وجوده الفاعل فى الحياة لا مجرد مواطن زائد عن الحاجة عرضة لشتى الامراض النفسية والعصبية.

إن استيعاب هؤلاء العاطلين فى دورة العمل والمشاركة والانتاج إنما تمليه ضرورة انسانية قبل أن تمليه ضرورة اقتصادية لأن اقتصاد هذه البلاد لا يشكو أى ضعف بل هم يكثرون من الحديث عما يسمونه المعجزة الاقتصادية كوصف للحالة التى وصل اليها اقتصادهم.

وخلاصة القول اننا نشغل انفسنا كثيرا بمشاكل المجتمعات الاخرى ونبالغ فى تجسيمها ونحاول أن نحقق من ذلك تعويضا نفسيا يبرر ما نحس به من قصور نحوها. ان اهم ما حققه الغرب هو أنه لا يرمى بمشاكله تحت البساط ويدعى أنه لا يراها كما نفعل نحن، وإنما يضع كل قضاياه فوق مناضد الفحص والتشريح ويبحث عن علاج لها. وقد آن لنا أن نتعلم منه هذا الدرس.

***

هناك قول ساخر يقول إن المبادئ مكانها المعارضة، ومعنى ذلك أن هذا المعارض الذى عاش يرفع أبهى الشعارات ويطالب بتطبيق أكثر المبادئ شرفا ونبلا ويطعم

أحلام الجماهير أقوالا جميلة عن العدل والحرية والاخاء والمساواة، يمنيها بالأمن والعزة والرفاء إذا وصل ـ إلى الحكم، ما أن يحقق غرضه فى اعتلاء سدة الحكم ويبدأ فى التعامل مع معطيات الواقع حتى يكتشف أن المثل والمبادئ شيء آخر غير الواقع وحقائقه العارية من الوهم والخيال، وسوف ينشغل بمواجهة المشاكل التى يفرزها واقع الحكم والبحث عن أفكار عملية يضمن بها علاجا لهذه المشاكل حتى لو اختلفت هذه الافكار وهذه الحلول عن تلك المبادئ والشعارات التى كان ينادى بها وهو خارج دائرة الحكم.

وبرغم ما فى هذا القول من مبالغة تصل إلى حد السخرية المريرة فهو أيضاً يجسد حقيقة كثيراً ما نراها ماثلة أمام أعيننا، ولا أذكر الآن من هو ذلك الثائر الذى أبدى أسفه وحزنه لأنه ما أن تحقق حلم الجماهير بوصوله إلى السلطة حتى وجد نفسه يشرع أول ما يشرع فى انشاء جهاز للمخابرات يكون رقيبا على هذه الجماهير.

وما أكثر ما تعلقت أبصارنا بحكام يأتون إلى الحكم بأفكار جديدة جريئة وأهداف نبيلة عظيمة فنمنحهم حبنا وتأييدنا وما أن تمضى بضع سنوات، إن لم تكن بضعة أشهر

حتى نكتشف أنهم أكثر بؤسا ووبالا علينا من الحكام الذين سبقوهم، وليست الثورة الايرانية إلا مثالا على هذه الخيبة التى نحصدها مع كل تغيير يطرأ على الحكم.

وبرغم مضى مئات الاعوام على ظهور الأفكار الميكيافيللية فقد ظل كتابا الامير والمطارحات هما دستور الحياة السياسية فى عالمنا بما فى ذلك بلدان العالم المتقدم حين تعاملها مع شعوبنا وقضايانا.

فنحن نتابع بقلوب خافقة الانتخابات الفرنسية أو البريطانية أو الامريكية أو التغييرات التى تطرأ على الحكم فى روسيا أو فى الصين بأمل أن نرى شيئا جديدا ينبئ بتحول ينال هذه السياسات المجحفة فى حقنا ويفتح افقا جديدة ويتيح شيئا من الانصاف تجاه قضايانا، فإذا بهذا الذى يأتى سواء كان اشتراكيا أو ليبراليا، يساريا أو يمينيا يعامل قضايانا بالاسلوب ذاته ويستخدم المسطرة ذاتها التى استخدمها اسلافه إن لم يزد شططا فى معاملتنا واستهتارا بقضايانا ورغبة فى الحاق الأذى بشعوبنا.

ولقد وجدت أن أفضل وسيلة لمعالجة حالات الاحباط التى تصيبنى نتيجة متابعتى لما يجرى من تغيير فى البلدان

الكبيرة أن أصرف النظر عنها، وانسى كل ما يحدث بها من تغيير، وادير وجهى صوب بلدان أخرى صغيرة وفقيرة هى التى صرت ابحث عنها فوق الخريطة واختار اصغرها حجما واضعفها شأنا فى الحسابات الدولية مثل تلك النقاط الطافحة فوق مياه البحار والمحيطات بدءا من برمودا إلى سيشيل، لأن متابعة أخبارها تمنحنى راحة أكبر وشعورا أعظم بالسلامة والامان. فأعرف انه مهما كان حجم التغيير فيها كبيرا لن يستطيع أن ينالني أو ينال القضايا التى تخصنى بأى ضرر أو أذى. ووجدت فى ذلك وسيلة تنجينى من مشاعر الاحباط والخيبة حين أتابع أخبار الدول الكبيرة.

وبطبيعة الحال فإن القول الذى يحكم بالنفى على المبادئ لكى يبقى دائما خارج الحكم، لن يرغمنا على اعتبار كل المعارضين مستبدين تحت التمرين، أو اعتبار كل الحاكمين مهما افسدوا أفضل حالا من معارضيهم، فالصورة تحتمل درجات لونية كثيرة غير الأبيض والاسود، ولكن الإنسان يطمح إلى أن يرى شيئا يناقض هذا القول ويرمى به إلى سلة المهملات، يطمح إلى أن يرى عالما حقق هذا التوازن بين الواقع والمثال. ان عالمنا الذى صار قرية

صغيرة بفضل الثورة العلمية فى مجال الاتصالات والمواصلات لم يعد يحتمل اساليب المغامرين الذين يتاجرون بالشعارات، ويعبثون بمقدرات الشعوب، لأن الخطر الذى يحيق بمكان ما من العالم، صار بامكانه ان يهدد السلام فى العالم كله، والمشكلة الصغيرة التى تنفجر فى بقعة بأقصى أركان الكرة الأرضية، بامكانها أن تصبح مشكلة كل شعوب العالم. ولذلك فان العودة إلى الاحتكام للمبادئ والارتفاع بأساليب الحكم إلى مستوى المسئولية الاخلاقية الى تتفق مع ما حققناه من تطور فى مجالات العلوم والمعارف الإنسانية ستكون سبيلنا الوحيد إلى النجاة من الكارثة.

***

دأب الاطباء على اضافة جملة يقولونها لك بتجهم وخطورة بعد الانتهاء من كتابة الوصفة الطبية هي:

ـ وما عليك الآن إلا أن تبتعد عن كل ما يسبب لك الانفعال والتوتر.

وهم لا يقولونها لك عندما تأتى لتشكو أرقا أو قلقا أو كآبة أو مرضا من أمراض النفس فقط، وإنما يقولونها حتى وأنت تأتى باحثا عن دواء لمرض عضوى كالصداع أو اضطراب المعدة أو تشكو ألما فى الأنف أو الأذن أو العينين أو الاسنان أو الحنجرة، فهى جملة صارت لازمة لأى زيارة طبية.

ـ ابتعد عن الانفعال والتوتر!

يقولها لك الواحد منهم وكأنها مهمة سهلة ويسيرة ولا تقتضى سوى أن تقرر شيئا مثل هذا فيتحقق فى التو والحين. أو بامكانك أن تصدر أمراً إلى جميع مذيعى نشرات الاخبار بأن يمتنعوا عن ذكر الأخبار المزعجة أثناء سماعك للمذياع أو وجودك أمام جهاز التلفاز وأن تصدر أمرا لكل الشوارع التى تعبرها من بيتك إلى عملك بأن تعلق الزينات وتقيم الافراح والاحتفالات حين مرورك بها حتى يختفى من طريقك كل ما كنت تقابله من معارك ومشاكل وأكداس من القمامة والذوق الفاسد تسبب لك الضيق والازعاج. وأن تصدر أمراً لكل السيارات والدراجات النارية بأن تمتنع عن المرور بالأحياء القريبة من بيتك لكى لا تثير بضجيجها

اعصابك وتمنع عنك النوم، وأن تصدر أمراً آخر إلى جيرانك بأن يتخلصوا من أطفالهم وصبيانهم الذين يملئون الشارع صخبا وعنفا.

ولعل هذا الطبيب يريدك أن تربط عصابة على عينيك، فلا ترى شيئاً وأن تضع صمغا أو طينا فى أذنيك، فلا تسمع شيئا وأنت تضع قيدا فى قدميك يمنعك من الحركة والتجوال لكى لا تصطدم بكتل الزحام أو تكون طرفا فى المارثوان الذى يقيمه الناس صباح مساء، وان تبحث عن غرفة فوق سطح البيت تحيطها بعوازل الصوت وتقفل أبوابها وشبابيكها وتبقى مقيما بها مدى العمر، فهذا هو السبيل الوحيد الذى ينجيك من التوتر والانفعال، أما إذا أردت أن تكون جزءاً من الحياة تذهب كعباد ا الآخرين إلى العمل وتقابل الناس وتجالسهم وتسمع وتقرأ وتشاهد ما يسمعونه ويقرءونه ويشاهدونه فإنه لا نجاة اك من التوتر والانفعال حتى لو اقمت فى أبعد القرى عن الحضارة والعمران، أو حتى لو كنت تنتمى لأكثر شعوب العالم استقراراً وأمنا وسلاماً، فما بالك إذا كان هذا الطبيب يعرف أنك مواطن عربى وأن ا قد اختبرك بمحنة المجيء إلى الدنيا فى هذه المرحلة التى لم

ينصفها جميع الكتاب الذين اطلقوا عليها نعوت الخطيرة، والعصيبة، والحرجة لأنها أشد هؤلاء بؤسا من كل الاوصاف والنعوت.

إن حديث الطبيب فى مثل هذه الحالة يصبح ضربا من العبث والهذيان، ولا سبيل إلى التفاهم معه إلا بأساليب الأحاجى الشعبية. وما أن تسمعه يقول:

ـ ابتعد عن التوتر والانفعال. حتى تبادره قائلاً:

ـ ابتعد أنت عنهما، وسوف اهديك مدينة لو أفلحت!!

***

الذين يتعرفون من قريب على مظاهر الحياة الاجتماعية فى بريطانيا سوف يشعرون بالأسف والأسى لما ألحقه التفكك العائلى من ضرر بالطاعنين فى السن من رجال ونساء ممن يواجهون صقيع الشيخوخة فى فراغ وعزلة بعد أن تمزقت الوشائج التى تربطهم بالأهل والابناء.

وبرغم هذا الجفاف فى العلاقات العائلية فإن هناك تقليدا جميلا حافظ عليه سكان الجزر البريطانية وهو الاحتفال

بكل انسان بلغ عمره مائة عام من مواطنيهم. تتولى السلطات المحلية اقامة حفل لصاحب العيد المئوي، وتتولى ملكة بريطانيا رعاية الحفل بارسال خطاب إلى المحتفى به أو مندوب لحضور الاحتفال ويدعى المواطنون للمشاركة فى هذا التكريم وتقديم التهنئة والهدايا لهذه المرأة أو لهذا الرجل الذى عاش قرنا كاملا من الزمان. ولعل هذا التكريم يأتى تعويضا عن أوجه التقصير والاهمال التى يلاقيها الطاعنون فى السن من فئات المجتمع الأخرى، ولكن يبقى مع ذلك تقليدا جميلا يؤكد عددا من المعانى الإنسانية التى تحض على احترام الكبار وتسعى لوصل الروابط بين الاجيال وتعيد الاعتبار لقيم الوفاء التى صارت تضيع فى زحام هموم ومشاكل الحياة. ولاشك أن بلادا كثيرة أخرى تعتمد هذا التقليد وتعبر بشكل أو بآخر عن تكريمها الشعبى والرسمى لمثل هؤلاء المواطنين الذين بلغوا هذا العمر، انها رسالة تقدير وامتنان تبعث بها الاجيال الجديدة إلى هذه الرموز التى تبقت من أجيال وأزمنة توارت وانتهت.

وبرغم ان تقدير الصغير للكبير يمثل أحد الاعمدة الاساسية فى ثقافتنا وتربيتنا العربية الاسلامية فاننى لم أسمع

أو أقرأ شيئا عن مثل هذا التكريم يحدث فى بلادنا العربية، ربما لأننا اكتفينا بدفء العلاقات العائلية وما توفره لهؤلاء الشيوخ من عطف وبر ورحمة عن التكريم الرسمي. وربما لأن قضايا التحول والبناء وهموم التنمية واللحاق بركب العالم المتقدم قد شغلت أجهزتنا الرسمية عن الالتفات لمثل هذه الجوانب الإنسانية الصغيرة، ومع ذلك فاننى اعتقد أن تكريما يتجاوز احتفاء الاهل والاقارب ليجعل من هؤلاء الشيوخ محل اهتمام المجتمع بهيئاته الشعبية والرسمية سيكون تأكيدا لهذه القيم النابعة من تراثنا وتعزيزاً لروح التوادد والمحبة التى تربط بين أبناء مجتمعنا. ان هذا الاحتفال بقدر ما هو احتفال بتواصل الاجيال وتتابع الرسالة التى يسلمها جيل إلى جيل فهو احتفال بالحياة ونبضها المتجدد، احتفال بالإنسان فى كدحه وعنائه وجده واجتهاده، ان هذا الإنسان الذى امتد به العمر حتى وصل مائة عام، عايش مختلف الاحداث والخطوب وحقق انتصاره على المشاكل والهموم والفواجع التى تعصف بحياة البشر إلى ان وصل هذه السن وقطع هذا الشوط وصمد فى الماراثون الإنسانى حتى بلغ هذا الرقم القياسى الذى قدره مائة عام. إن

من يصل إلى هذه السن فى وقتنا هذا معناه أنه عايش حربين عالميتين عصفتا بالمجتمع الإنسانى كله واجتاز ما رافقهما من محن وكوارث اقتصادية وطبيعية وما جاء بعدهما من فتن وحروب صغيرة، فالاحتفال به احتفال بانتصار الحياة على كل عوامل الموت والعقم والفناء. انه احتفال يشمل كل اولئك الاباء والاجداد الذين عمروا لنا هذه الديار واشادوا بيوتا نسكنها واشجارا نأكل من ثمارها وحرروا البلاد من غزاة كانوا يستعمرون أرضها، فوجب الاعتراف بفضلهم وتكريمهم من خلال هؤلاء الرجال والنساء الذين تخلفوا قليلاً عن ركبهم وبقوا لحظات فى صحبتنا بعد أن رحل ذلك العالم الذى ينتمون اليه.

***

كلما زرت احدى المدن الكبيرة التى تزهو بتقدمها وتطور اقتصادها وصلابة بنيتها الاجتماعية التى ضمنت لأهلها الامن والرخاء، اثارنى ذلك المشهد الذى نلتقى به منذ أول يوم لوصولنا والذى نراه عند ذهابنا عبر الانفاق إلى

محطات القطار، أو عند مرورنا بالشوارع الخلفية التى تضربها الامطار والرياح ملازما لأبواب الحوانيت والحانات، مشهد نساء ورجال بعضهم فى مقتبل العمر، يتكومون فوق الارض وتحت الاقواس يلتحفون بأوراق الصحف القديمة وتفوح منهم رائحة البؤس والشقاء وقد تحولوا إلى حطام بشري.

مشهد برغم اننى أراه عاماً وراء عام إلا انه ظل مصدراً للحيرة والدهشة يثير فى الذهن شتى التساؤلات. إذ من السهل أن تجد تفسيراً لمثل هذا المشهد لو انك التقيت به فى كالكاتا أو بومباى أو كامبالا أو احدى مدن الفقر والمجاعات والحروب الاهلية، إما أن تلتقى به فى عواصم العالم والثراء التى تفخر أنظمتها الاجتماعية والسياسية المتطورة بأنها تمجد الإنسان وتصون كرامته وتقدس حريته وحقوقه، فإن الامر سيظل مصدرا للدهشة والاستغراب.

وهو ليس مشهدا نادرا نلتقى به مرة ولا نلتقى به مرة أخرى فهو يقابلك فى كل مكان تذهب إليه ليؤكد ان عدد هؤلاء الناس الذين اضحوا حطاما بشريا يبلغ رقما كبيرا ويشكل ظاهرة تلفت نظر كل انسان. وهم ليسوا من اتباع

الدعاوى الفلسفية التى صنعت الكولوشار فى فرنسا وصنعت فى بقية الدول الغربية تقليعات الهيبيين أو البانكس أو أبناء الطبيعة أو غيرهم من المتمردين الذين ينفرون من الطقوس الرسمية ويعيشون بعيدا عن الارتباطات الوظيفية العائلية ويمتنعون عن العمل بالمؤسسات التقليدية التى يعتبرونها مسخا لشخصية الإنسان، فتلك الدعاوى يمكن فهمها كما يمكن فهم اتباعها واتباع دعاوى أخرى تشبهها وان اتخذت منحى دينيا مثل اتباع كريشنا واتباع موني فهؤلاء حتى وإن مارسوا اختيارا يختلف عن اختيارات المجتمع الذى ينتمون اليه يتدبرون لأنفسهم عملا بإحدى المزارع أو المنتجعات ويحتفظون بمستوى معيشى لا يفقدهم كرامتهم. ان حالهم يختلف عن حال هذه الاكوام من العظام التى انسلخت انسلاخا كاملا عن الحياة التى تليق بالبشر. فهل هؤلاء أيضاً يمارسون اختيارا حرا يعشق الموت بردا تحت الانفاق والقناطر؟

ان ما يبطل هذا القول هو ان جميع هذه الكائنات التى كانت رجالا ونساء، تعانى من امراض الادمان، ولا أدرى كيف يجدون وسيلة للحصول على الكحول أو المخدرات التى

يدمنونها. انهم يلتقطون قرشا من هنا وقرشا من هناك يضمن لهم سما رخيصا يدمرون به انفسهم. فهم اذن كائنات مريضة لحق نفوسها عطب وتشويه لا شفاء منه. انهم ضحايا خطأ فى النسيج الاجتماعى الذى صنع شبكة معقدة من العلاقات ضمنت الامن والرخاء لأغلبية الناس ورمت جانبا ببعض الزائدين عن الحاجة. ان هؤلاء البؤساء الذين نراهم يلتحفون الصحف فى ليالى الشتاء ليسوا إلا الرأس الطافح من جبل الجليد الاسود المدفون تحت الماء. فلاشك أن البؤس الاسود يطال اناسا آخرين لا نراهم ولكننا نسمع بأخبارهم عندما يموتون بردا فى ديارهم نتيجة افتقارهم إلى مبلغ يشترون به وقودا، وهو يدل على ان هذه المجتمعات برغم ما حققته من تطور ونماء وما تتمتع به من خير ورخاء ما تزال تعانى خللا فى تكوينها وبنيتها، وإن الثوب الذى يبدو زاهيا وبراقا يخبئ تحت بريقه ولمعانه الكثير من الثقوب وبقع الوحل السوداء.

***

الذى جاء زائراً إلى مدينة غربية مثل العاصمة البريطانية أثناء أزمة الخليج، لا شك أنه فوجئ بحجم الاهتمام الذى كان يمنحه لها الرأى العام، فأحداث الأزمة وأحاديثها كانت تهيمن على حياة جميع الناس، وتحتل الجزء الاكبر من الوقت المخصص للأخبار والبرامج السياسية فى الإذاعات الرئيسية والمسموعة، وتملأ أعمدة الصحف والمجلات، بل أن هذه الاحداث صارت محورا أساسيا من محاور الاحاديث الخاصة فى البيوت والشوارع والمنتديات، وكأن هؤلاء الناس معنيون بالقضية مثلهم مثل أهل المنطقة الذين يعيشون فى قلب الاحداث. ولم ألجأ إلى القراءة التآمرية التى تفسر هذا الاهتمام بأنه جزء من خطة مرسومة لتأليب الرأى العام ضدنا، لأن هذا المواطن البسيط الذى نلتقى به عاملا بأحد الفنادق أو سائقا لسيارة أجرة أو متسكعا يستمع إلى خطباء الحدائق، ليس بالتأكيد شريكا فيما يدور وراء كواليس الحكم، أو ضالعا فى التآمر على شعوب العالم الأخرى، حتى إذا كان اهتمامه جاء نتيجة الضجة التى يثيرها من حوله السياسيون والاعلاميون، فان هؤلاء السياسيين والاعلاميين أنفسهم، تتنوع آراؤهم وافكارهم ومواقفهم من

الازمة بحسب تنوع توجهاتهم السياسية ومنطلقاتهم الفكرية، وانتماءاتهم الحزبية، ولذلك فان لهذا المواطن اسبابه التى تجعله ينفعل ويتأثر ويراقب تطورات الازمة يوما بيوم، فهى اسباب تتصل بحياته وأمنه ورزقه، كما تتصل بأمن وسلامة العالم الذى يعيش فيه.

لقد رأى الناس نظاما دوليا جديدا يولد هذه الايام ويبشر بالانفراج فى العلاقات الدولية، والمعالجة السلمية للقضايا الخلافية، ونزع فتيل الحرب التى ستكون حربا كونية، وتصفية نقاط التوتر ومصادر الخطر، وذلك بعد سنوات من الوقوف على حافة الهاوية نتيجة الصراع بين القوتين الاعظم. لقد اختفت لغة الحرب لتحل مكانها لغة الحوار ونزع السلاح وتدمير مخازن الشر من اسلحة جرثومية وكيماوية وذرية، ولكن أزمة الخليج جاءت بأحداثها العنيفة تعيده إلى لغة الصراع المسلح واستخدام القوة فى تسوية النزاعات.

وفى أوج تلك الازمة التى هددت الوطن العربى بمزيد من الانقسام والتمزق والحروب، كانتا شاشات التلفاز مظاهر البهجة التى تغمر شوارع برلين ليلة الاحتفال بميلاد ألمانيا

الموحدة، وظهور هذا العملاق السياسى والاقتصادى الجديد، مستفيدا من جو الانفراج الذى صار يحكم العلاقة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربي. لقد جاء هذا النظام الدولى الجديد، يحمل حقائق جديدة كان بامكانها أن تعطل دور الكيان الصهيونى باعتباره كلاب حراسة وقاعدة متقدمة على الحزام الذى يفصل بين معسكرى الشرق والغرب، وكان بامكان البلاد العربية أن تسعى لتوظيف هذا النظام الدولى من أجل تحقيق تضامنها ووحدة صفوفها وخروجها إلى العالم قوة كبرى تعزز مسيرة السلام وتسهم فى البناء الحضارى وتباشر دورها الفاعل فوق الخارطة السياسية لعالمنا، كما حدث فى البلاد الالمانية وبلاد أخرى فى طريقها إلى الاستفادة من هذه الفرصة التاريخية، ولكننا للأسف الشديد لا نجيد قراءة التاريخ ولا ندرك الامكانيات المتاحة إلا بعد ضياعها.

ان العالم لم يكن ليهتم كل هذا الاهتمام بما يحدث فى بلادنا، والمواطن البسيط فى شمال العالم وجنوبه، وشرقه وغربه، لم يكن ليجعل من هذه الاحداث قوتا يوميا لسمعه

وبصره وعقله وقلبه، إلا لأنه يدرك مدى أهمية بلادنا وقيمة موقعها ومواردها وامكانياتها، فمتى نعرف قيمة أنفسنا؟

***

مهما تعددت زياراتك إلى مدينة ما أو منطقة من مناطق الدنيا، فإنه يبقى للزيارة الأولي، والانطباع الأول، أثراً فى الذاكرة لا يمحى، وسيظل هذا الانطباع الاول يلون نظرتك إلى ذلك المكان حتى بعد ان تكتمل معرفتك به وتتوثق صلتك بأهله وتتعمق خبرتك بجوانب الحياة فيه.

وقد ترتبط زيارتك الأولى بذكرى حقيبة ضائعة، أو عبارة جارحة قالها دركى عصبى المزاج وسقطت فى اذنك فإذا بتلك الذكرى تنشر غشاوة فوق عينيك تحجب عنك الكثير من جوانب البهجة والجمال.

وقد يمضى زمن طويل قبل أن تزول تلك الغشاوة وتهتدى إلى جمال ذلك المكان.

وما أكثر ما نلتقى فى مكان واحد باثنين من اصحابنا فإذا بأحدهما يقول فى معرض الحديث عن مدينة روما مثلاً،

بأنه كلما ازداد معرفة بها ازداد نفورا منها، بينما يؤكد الصديق الثانى بأنه كلما حباه الحظ بزيارتها ازداد عشقا لها. وتتساءل عن سبب هذا التباين فى وجهات النظر وتبحث عما إذا كان ذلك يعكس تباينا فى المستويات الثقافية أو الجذور التربوية أو أنه جاء نتيجة لاختلاف الميول والهوايات ومجالات العمل، ولكنك تعرف انهما ينتميان إلى مدينة واحدة، وأنهما أبناء مناهج دراسية واحدة، ومستوى معيشى واحد وعمر متقارب ومجالات عمل متشابهة، وكلاهما يقرأ قصص موارافيا، ويشاهد أفلام فللينى ويحب فطائر البيتزا ويعشق ابتسامة كلوديا كاردينالي. وتكتشف ان السبب فى هذا التباين أو التنافر فى وجهات النظر يعود إلى احداث صغيرة أثناء الزيارة الأولى اسهمت فى تكوين ذلك الانطباع الاساسى الذى ظل يعيد انتاج نفسه فى ذاكرة كل منهما.

قد لا يصدق هذا القول على كل الناس وقد لا يتطابق مع كل الحالات، ولكنه صدق معى فى مناسبات كثيرة وجدت فيها نفسى أسير النظرة الأولى لأماكن تكررت زيارتى لها وتعمقت خبرتى بأساليب الحياة فيها، وخلاصة القول أن الاشياء تتلون بلون رؤانا وتكتسب صورتها مما نضيفه نحن

عليها، إنها كثيراً ما تكون مرايا تعكس ما فى نفوسنا وأن القبح والجمال قبل أن نلتقى بهما فى الطبيعة فهما فى عقل الإنسان الذى بامكانه إذا شاء أن يحيل الجمال قبحا ويحيل القبح جمالا وقديما قالوا: كن جميلا..

***

ترى ماذا سيكون شعورك عندما تتلقى بطاقة من بطاقات الأفراح تدعوك لحضور حفل طلاق يقيمه صديق لك وزوجته؟

هذا ما يمكن أن يحدث لك لو كنت مواطنا من مواطنى مدينة بيرمنجهام ببريطانيا حيث تبدأ الآن هذه التقليعة الجديدة التى تدعو إليها امرأة مطلقة صنعت لنفسها اسماً تتناقله أعمدة الحوادث الاجتماعية فى الصحف البريطانية، هى شيلا ديفنر.

لقد تضاءلت هيمنة التقاليد القديمة، التى كانت تحكم العلاقات الاجتماعية وتضع الطلاق فى قائمة المحظورات التى لا يباح الاقتراب منها إلا عند الضرورة القصوى،

ولحق التغيير قوانين الاحوال الشخصية التى ظلت تعكس وتواكب ما عرفته المجتمعات الغربية من تحولات وانقلابات اجتماعية، كما تغيرت النظرة الدينية المتزمتة التى كانت سائدة لعصور طويلة برغم أن أثرها مازال ساريا فى طقوس الزواج الذى يتم فى الكنيسة حيث مازال العروسان يتبادلان المواثيق والعهود على الوفاء والإخلاص واحترام الرابطة التى تجمع بينهما فى السراء والضراء حتى يفرق بينهما الموت، وخاضت جمعيات الحقوق المدنية معارك كثيرة ضد مؤسسات سياسية ودينية تتولى حراسة التقاليد القديمة حتى تحقق لهذه الجمعيات ما أرادت بشأن تسهيل إجراءات الطلاق وكسبت معاركها الأخيرة فى روما نفسها حيث دولة الفاتيكان وسطوة التقاليد الكاثوليكية التى تعتبر الطلاق من المحرمات.

وبرغم حرية الاختيار التى صار يتيحها المجتمع فى العقود الاخيرة، مقارنة بالمراحل القديمة بما فيها العصر الفيكتورى الذى امتد تأثيره فى بريطانيا إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة والذى كان متزمتا يحبذ الطريقة التقليدية فى الزواج حيث تعقد أواصر المصاهرة داخل الطبقة الاجتماعية الواحدة، وحيث فرص الاختيار أقل مما هى عليه الآن، أقول

برغم الظروف الجديدة التى تتيح الاختيار وبناء الأسرة على أسس أكثر متانة فإن الطلاق لم يكن أكثر شيوعا مما هو عليه الآن.

ولاشك أن بعض أسباب الطلاق يتصل بالثورة التى تحققت على مستوى تنظيم الأسرة وتحديد النسل، فكثير من الأزواج فى الغرب يجعلون من السنوات الأولى للزواج سنوات اختيار وتجربة يمتنعون فيها عن إنجاب الأطفال، وعندما يفكرون فى فك هذا الارتباط يفكونه دون تحمل مسئوليات كبيرة.

وطالما أن هذا الزواج الذى انتهى الآن إلى طلاق، قد بدأ بالموسيقى والرقص والغناء فلماذا ينتهى بالدموع والبكاء، لماذا لا ينتهى كما بدأ بطريقة حضارية وحفل يدعى إليه الأصدقاء؟

***

ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن السيجارة شيء قادر على القتل.

هذه اللفافة الصغيرة البيضاء ذات المظهر الوادع البريء التى بدأ بعضنا تدخينها منذ أيام المراهقة تسلية، ولعبا، ومحاكاة للرجال الكبار، صار العلم يكتشف لها من جوانب الشر ما يوازى الآفات الأخرى التى تؤدى بضحاياها إلى الادمان والهلوسة وأمراض العقل.

إن الخطر الذى تمثله السيجارة صار الآن هاجسا يسيطر على كثير من أجهزة التوعية والارشاد فى المجتمعات الغربية إلى حد أن الحكومات لم تعد تكتفى بوضع التحذير المعروف الذى يشير إلى امراض التدخين وإنما صار هذا التحذير أكثر صراحة وتحديدا فهو يقول بلهجة خالية من التزويق بأن التدخين سبب أساسى للإصابة بسرطان الرئة والذبحة الصدرية، وسيضيفون إلى هذا التحذير اكتشافا طبيا جديدا يقول بأن التدخين سبب من أسباب الجلطة التى تصيب أوعية الرأس.

وأنا لا أقول هذا الكلام استفزازا للقارئ الذى قد تكون قراءة هذه الصحيفة مع سيجارة وفنجان قهوة أو شاى طقس من الطقوس التى يبدأ بها يومه، فقد كانت هذه عادتى التى لم أكن اتصور إننى أستطيع أن أتخلى عنها تحت أى تهديد،

ولذلك فاننى اقول هذا الكلام استفزازا لنفسى باعتبارى واحداً من ضحايا هذه المخلوقة الصغيرة الماكرة القاتلة التى ترتدى ثوبها الأبيض وتحط بين أصابعى وكأنها ملاك هابط من السماء.

لقد حاولت وبعد أكثر من عشرين عاما أن اقاوم سحرها واتخلص من شباكها وافك ارتباطى بها، وبرغم نجاحى فى الاقلاع عنها فقد ظللت دائم الحنين اليها اكسر صيامى عن تدخينها مرة أو مرتين كل أسبوع لأرتشف رحيقها فى حرج وخوف ولهفة وكأننى عاشق يتسلل تحت جنح الظلام لملاقاة حبيبته.

لقد وعت بعض المجتمعات خطورة هذه الآفة فادارت الحملات الضارية ضدها وسعت لتحذير الناس من أهوالها، وأعلنت منظمة الصحة العالمية حربها ضد التدخين باعتباره يمثل تهديدا لحياة الإنسان ولكن السيجارة ستظل برغم ذلك كله تبسط نفوذها على حياتنا وتطيح بضحاياها من أبناء جنسنا ليس فقط لأنها ذات مظهر ساحر جذاب يخفى طبيعتها القاتلة ولكن لأنها أصبحت صناعة ضخمة يتوقف على

استمرارها فى الوجود استمرار آلاف المؤسسات المالية التى تحكم عالمنا.

إن السيجارة مثلها مثل أسلحة الفتك والدمار جزء من هذه الحلقة الشريرة التى تبدأ بانسان يريد تحقيق مصلحته بايذاء وتدمير انسان أخر، ناسيا أنه عندما يفعل ذلك إنما يشارك فى ايذاء وتدمير نفسه أيضا.

***

يسمونه فى الاوساط الاكاديمية الطالب الأبدي.

وهو نوع من البشر يرفض أن يغادر فصول الدراسة إلى العالم المفتوح حيث يشتد الصراع بين الناس الذين يتزاحمون على أبواب العمل ويتنافسون على تحقيق النجاح ويباشرون من خلال ذلك الصراع والتنافس والتزاحم مهمات الانتاج والبناء.

ولابد لمن ينتسب لجامعات الغرب أن يلتقى بمثل هؤلاء الطلاب الابديين من أبناء البلاد. ان الواحد منهم غالبا ما يعيش حياة بائسة ومع ذلك فهو يحبها ولا يرغب عنها

بديلا، انه نوع من الاختيار يجعله يتحمل المتاعب مقابل الابتعاد عن مسئوليات الحياة، ولكى يتيح لنفسه البقاء دون ازعاج أو تصادم مع قرارات الجامعة لأكبر عدد من السنين فهو يسجل نفسه طالبا غير متفرغ لتحضير رسالة الدكتوراه، وهو ان لم يستطع أن يعيش على دخل أمه التى تعمل شرطية مرور أو على مشاركتها فى معاشها التقاعدى إذا وصلت سن التقاعد، تفنن فى الحصول على منح من بعض المؤسسات التى ترعى أمثاله من الطلبة البائسين، وتنتهى سنوات المنحة فيتدبر لنفسه عملا مؤقتا بأحد المصانع إلى ان يجد قريبا له يتبرع بمساعدة صغيرة تعينه على حياة الكفاف التى ارتضاها لنفسه، ولكن الأمر يختلف كثيرا عندما يتعلق الأمر بالطلاب العرب الذين اختاروا قضاء ما تبقى من أعمارهم طلابا، فالبقاء طالبا لمن جاء موفدا فى بعثة حكومية هو أضمن سبيل للحصول على رزق ساقه ا دون جهد أو عناء.

وأغلب هؤلاء الطلاب ينتسبون إلى مدرسة أو جامعة ما، وما أن تنتهى مدتهم بها دون تحقيق نتيجة حتى ينتقلون إلى مدينة أخرى ومدرسة أخرى وتمضى السنوات ويمضى

العمر لا الطالب يتوقف عن الأخذ ولا الحكومة تتوقف عن العطاء.

أغلب هؤلاء الطلاب يأتون للدراسة عامين أو ثلاثة أعوام للحصول على دبلوم أو تحضير شهادة عالية لكنهم يمضون عشرين أو ثلاثين عاما قبل الحصول على هذا الدبلوم أو هذه الشهادة.

ولقد التقيت ذات مرة بموفد ارسلته ادارة أحد الموانئ للتدريب على طلاء المواسير لكى تقاوم رطوبة وملوحة ماء البحر وذلك لمدة عام بإحدى المدن الساحلية البريطانية، التقيت به وكان قد أمضى اثنين وعشرين عاما فى هذه البعثة، كان مازال يتقاضى راتبا شهريا ومصاريف اضافية لشراء احتياجاته من الكتب والمراجع ويتلقى هو وأسرته علاجا مجانيا على حساب الدولة التى أوفدته. التقيته وهو مازال يواصل التدريب على طلاء المواسير ويجددون له البعثة عاما بعد عام. اندهشت فى البداية لغفلة الحكومة التى تصرف على عامل طلاء ما يمكن أن يبنى ميناء جديدا، ثم سرعان مازال اندهاشى عندما عرفت منه أن له خالا يشتغل غفيرا فى ذات الميناء الذى أوفده فى هذه البعثة، فأنا أعرف

بمثل ما يعرف القراء مدى سطوة ونفوذ الغفراء فى مدن وحواضر العالم العربي.

***

ما يسمى جلوباليزم صار الآن سياسة معتمدة ومعلنة من قبل دولة كبرى هى الولايات المتحدة الامريكية، وكلمة جلوباليزم تعنى السياسة التى تشمل كل شئون الكرة الأرضية باعتبار أن لأمريكا مصالح فى كل أنحاء المعمورة. وهذه السياسة الجديدة تشكل ذروة ما وصلت إليه السياسة الامريكية تجاه العالم منذ خروجها الميلودرامى إلى الدنيا أثناء الحرب العالمية الثانية والتى توافق مع تفجير أول قنبلة ذرية والكشف عن وجود سلاح قادر على ابادة البشرية. إن لأمريكا مصالحها فى العالم كله، هذا صحيح، فلا أعتقد أن هناك دار عرض سينمائى فى العالم لاتعرض أفلام الغرب الامريكي، ولا متجر ملابس لا يبيع بنطلونات الجينز، ولا مقهى لا يبيع الكوكاكولا، ولا دكان بقالة لا يبيع المارلبورو والعلكة الامريكية، إن لأمريكا حضورها التجارى الذى

يحتوى فى ذات الوقت حضورا ثقافيا. فهذا الفيلم أو الكاسيت بمثل ما هو تجارة فهو ثقافة، إن العلكة والسيجارة والبنطلون هى الأخرى لها جانبها الثقافى الذى يؤثر فى سلوك الناس وطبائعهم وهذا الحضور التجارى الثقافي، لابد أن يدعمه حضور عسكري، وهذا الحضور العسكرى إنما هو جزء من خطة سياسية تتصل بإدارة شئون الكرة الأرضية عنوانها جلوباليزم.

إن وجود مصالح لأمريكا فى أنحاء الدنيا لا يبيح لها وأن تتصرف وكأن العالم صار مستعمرة أمريكية كبيرة. إن أمريكا تتصرف من موقع القوة وتتكلم بمنطق الدولة الكبرى القادرة على تنفيذ ادارتها.

ولاشك أن العالم سوف يشهد صراع إرادات بينها وبين القوى الأخرى المؤهلة لدخول الصراع معها، وسيكون لتلك القوى أيضا سياستها التى توازى تلك السياسة وتتنافس معها على ادارة شئون الكرة الأرضية، ولكن السؤال ما هو الذى يمكن لنا كأمة عربية أن نفعله فى مواجهة هذه السياسات التى تسعى للهيمنة على عالمنا؟ قد لاتكون لنا القدرة على رسم سياسة لإدارة شئون الارض، وقد لاتكون

لنا الرغبة فى انتاج صناعة تنافس العلكة الامريكية أو الروسية، وقد لا نستطيع بناء أساطيل وإرسالها إلى أرخبيل الفلبين أو قناة بناما لمنافسة الاساطيل الامريكية ولكن يجب أن لا ندع قوى الشرق أو الغرب ترسم لنا السياسة التى نتبعها، يجب أن تكون لنا سياسة عربية موحدة نواجه بها السياسات التى تعتبر بلادنا وكأنها جزء من بساتينها أو مزارعها. ومهما اختلفت انظمتنا السياسية فإن مصالحنا فى النهاية واحدة وقضية أمننا الوطنى قضية واحدة، وإذا تركنا جانبا حديث العقيدة والثقافة واللغة والتاريخ برغم خطورتها، فإننا لن نستطيع أن نترك حقائق الاقتصاد والجغرافيا، حديث الارض والموارد التى ترغمنا على اتخاذ موقف موحد لحمايتها قبل أن يفوت الأوان.

***

لا أحد ينكر أن الولايات المتحدة الامريكية أصبحت القوى العظمى الأولى فى عالمنا المعاصر. ولا أحد ينكر أنها دولة ذات مصالح على مستوى الكرة الارضية، إن لم يكن

على مستوى كواكب أخرى فى مجموعتنا الشمسية، ولهذا فهى ترى أن لها دورا فى احداث العالم كبيرها وصغيرها. ونحن أيضاً لا نريد أن ننكر عليها القيام بهذا الدور إذا أرادته لخدمة الأمن والسلام والاستقرار فى العالم كما تقول وتدعي. كل ما نطالبها به وقد عهدت إلى نفسها القيام بدور الشرطى الذى يحفظ السلام فى الدنيا أن تستخدم مسطرة واحدة فى تعاملها مع الشعوب، وأن تهتدى لقواعد ثابتة لدى اتخاذها موقف الحكم والقاضى من قضايا العالم.

ولكن أمريكا للأسف الشديد لا تفعل ذلك، إنها لاتملك مسطرة ولا قواعد ثابتة فى تعاملها مع الآخرين. انها تتعامل مع العالم بمنطق شرطى تشيكوف، وهو ذلك الشرطى الذى صوره أنطون تشيكوف فى احدى قصصه ثائراً حانقا على الكلاب الاجرب الشريد الذى يعض الناس فى الشارع، ويتهم صاحبه بالتخلف وقلة الذوق ويهدده بالسجن والمحاكمة، ولكنه ما أن يعرف بأنه كلب الجنرال الذى يسكن تلك المنطقة حتى تتغير المعايير والمقاييس ويتحول الكلب إلى حيوان أليف جميل مسالم يشيع البهجة فى طرقات المدينة وصاحبه رجل ذوق وأدب وأخلاق وما أولئك الناس الذين

عضهم الكلاب إلا أجلاف أشرار حاولوا الاعتداء عليه. وهذا هو المنطق الذى استعارته الادارة الامريكية واستخدمته فى التعامل مع قضايا العالم، فهى تثور من أجل الرجال الذين تعضهم الكلاب، إلا إذا كان هذا الكلاب اسرائيليا صهيونيا فعندها تتبدل المعايير والمقاييس ويصبح الكلاب هو الحيوان المتحضر الأليف الذى لحق به الظلم ويصبح الرجل الذى أدمى ساقه الكلاب هو الظالم الأثيم.

إننا نوافق على كل ما تقوله أمريكا عندما ترفع شعارات تندد بالارهاب الذى ينال حياة الأبرياء، ونؤيدها عندما تطالب باحترام حقوق الإنسان أو تسعى لوقف انتشار الاسلحة النووية والكيماوية التى تهدد سلام العالم، وبرغم ان هذه الاسلحة إنما هى نتاج العبقرية الغربية، وبرغم ان امريكا وعددا من الدول الكبيرة التى تتحالف معها أو تنافسها تملك مخزونا هائلا من هذه الأسلحة فاننا نستطيع أن نفهم لماذا تريد أمريكا أن تبقى هذه الاسلحة حكراً على الدول الكبرى التى تحكم قبضتها على العالم خدمة لتوازن القوى أو ما يسمى توازن الرعب. ولكن لا أحد يستطيع أن يفهم أو يستوعب كيف يمكن أن يكون هذا أيضاً حلالاً على اسرائيل

وجنوب افريقيا وهما دولتان عنصريتان تقومان على القمع والارهاب واحتلال الارض واستعباد الشعوب، ويكون محرما على غيرهما من شعوب تناضل من أجل تحقيق حريتها وتحرير أرضها.

وها هى اليوم تقيم الارض وتقعدها بحجة أن الجماهيرية الليبية تسعى لإنشاء مصنع لانتاج الاسلحة الكيماوية، وهى لا تكتفى بالشجب والادانة وإنما تهدد باستعمال القوة وتوجيه ضربة عسكرية إلى ليبيا. وبرغم ان الجماهيرية نفت نفيا قاطعا هذه الاتهامات وعبرت عن التزامها بجميع المعاهدات الدولية بشأن حظر الاسلحة الكيماوية واستعدادها للتوقيع على كل المواثيق التى تحرم ذلك وفتح أبوابها لاستقبال المراقبين الدوليين الذين يقومون بتطبيق هذه المواثيق فإن أمريكا وأصلت حملتها الدعائية السوداء.

ومن هنا يتأكد أن مصنع الاسلحة الكيماوية مجرد شبكة من الدخان تطلقها أمريكا للتعمية والتمويه، لأن ما تهدف اليه إنما هو هدف آخر أبعد من ليبيا وأبعد من مصنع الادوية الذى تدعى أمريكا انه لانتاج الاسلحة الكيماوية.

سحب من الدخان الاسود الكثيف تطلقها أمريكا لتمرير عملية تآمرية جديدة تستهدف ضرب أهداف عربية بدأت تقلق الدوائر الصهيونية ومؤسسات الاحتكار فى أمريكا منها ما أشارت إليه افتتاحية الشرق الأوسط حول هذا الموضوع عندما قالت أن تنامى القضية العربية واستقطابها لقطاعات كبيرة من الرأى العام العالمى بما فى ذلك الرأى العام داخل أمريكا هو الذى استفز هذه الدوائر فعادت تبحث فى دفاترها القديمة عن أكثر الاساليب قدرة على ابتزاز الرأى العام وتحويله عن تأييد القضية ومنها أيضاً ما أشار إليه الاستاذ أمين الحافظ فى مقالته المنشورة بنفس العدد، من محاولة أمريكا ضرب الجهود التى تسعى لبناء المغرب العربى الكبير الذى سيتيح تعزيز التعامل التجارى مع التكتلات الاقتصادية فى المنطقة بما فى ذلك السوق الاوروبية المشتركة التى بدأنا نشهد أبعاد الحرب التجارية بينها وبين أمريكا.

أن أحداً لا يطالب بأن ينتهى الصراع بين الدول والقوي، فهو واحد من حقائق الحياة التى تقوم عليها العلاقات الدولية، ولكن أن يتخذ الصراع اسلوبا رخيصا كهذه

الاساليب التى تستخدمها الادارة الامريكية فى تعاملها معنا فهذا ما وقفت الامة العربية جميعها ترفضه وتدينه وتقول لأمريكا بحنجرة رجل واحد إنها لن تقبل الابتزاز والمساومة.

***

ننسى أحيانا ونحن نتعامل مع مكتسبات الحضارة، ما اقتضاه هذا المنجز الحضارى من جهد ووقت وعناء حتى وصل سهلا ميسورا فى متناول أيدينا. نفتح كتابا ونرميه لنقلب صفحات كتاب آخر، وننسى الاشواط التى قطعتها البشرية حتى وصلت إلى تحقيق انجاز مثل المطبعة، وكيف ان الكتاب كان بضاعة نادرة يرسل الملوك البعثات التى تقضى اعواماً فى رحلة الذهاب والعودة لاستنساخ كتاب سمعوا عنه فى بلاد بعيدة.

ونحن قبل أن نقرأ الكتاب تعلمنا هذه الرموز التى اسمها »الحروف« وننسى أن هذه الابجدية التى تعلمناها منذ الطفولة اقتضت البشرية أكثر من مليون عام حتى وصلت إلى اختراع الكتابة الذى جاء الينا سهلا وجاهزا نستطيع أن نتعلمه فى عدة أشهر، وهكذا الحال مع كل انجاز آخر، ندير المفتاح فى سياراتنا التى تنطلق تطوى الطريق وتفر من

أمامها الاشجار والابنية، أو نرفع سماعة الهاتف لنخاطب صديقا تفصلنا عنه آلاف الاميال، أو نضغط بأصبعنا على زر الكهرباء فيتدفق النور مضيئا بيوتنا، أو نأخذ حبة أسبرين ننهى بها صداعنا، ننسى ونحن نفعل ذلك أن هذه الآلة التى استعملناها فى انتقالنا، أو الاخرى التى استعملناها فى اتصالنا أو هذه الكهرباء التى اضاءت بيوتنا وشوارعنا أو هذا الدواء الذى جاء كالسحر يزيل آلامنا، إنما جاء نتيجة جهد بشرى ورحلة مضنية بدأت منذ بداية الحياة الإنسانية فوق الارض عندما استخدم الإنسان عقله ليكتشف النار ويخترع العجلة ويتطبب بالاعشاب حتى وصل فى مسيرته الحضارية إلى تحقيق هذه المكتسبات والمنجزات التى نستخدمها اليوم، ولاشك أن احساسنا بقيمة هذه المكتسبات هو الذى يجعلنا أكثر حرصا عليها وأكثر امتنانا لوجودنا فى هذا العصر، وأكثر اعترافا بفضل الاجيال التى سبقتنا والتى عانت واجتهدت وابدعت حتى وصل التراكم الحضارى إلى ما وصل إليه. وسوف يجعلنا احساس كهذا أكثر قدرة على الانتفاع بالمكتسبات التى وصلت الينا واستخدامها استخداما يؤكد قيمة الحياة التى نعيشها ويعمق انتماءنا للعصر، لأن

تعميق هذا الانتماء لا يأتى إلا من قدرتنا على تمثل هذه الحقائق وتثمين هذه المكتسبات والتعامل معها باعتبارها جاءت نتيجة كدح وجهد وعناء تواصل من جيل إلى جيل، مما يدفعنا إلى الانطلاق بها نحو آفاق أكثر تقدما واعظم نفعا للاجيال التى بعدنا.

إن أخطاراً كثيرة تهدد هذا العالم وتهدد كل مكتسباته الحضارية بالزوال، وهى اخطار من صنع الإنسان نفسه، فهو بمثل ما صنع منجزاته العلمية التى سخرها لخير البشرية ورفاهها، صنع أيضاً من أسلحة الدمار ما يهدد هذه المنجزات بالمحق والخراب، فالعالم ليس خيرا كله، ولكن الذين ينظرون إليه نظرة سوداوية عدائية مخطئون والذين يحاولون الهروب من العصر والبحث عن بديل يستوردونه من عصور قديمة مخطئون، والاختيار الوحيد الذى تبقى لنا هو أن نناضل جميعا ضد أوجه القصور والفساد وعوامل الشر والخراب التى تهدد حياتنا وتهدد عالمنا، وأن نسعى بقوة للمحافظة على هذه المكتسبات الحضارية التى بين أيدينا، فنحن شركاء فى استخدامها والانتفاع بها بمثل ما نحن شركاء فى الجهد والعناء الذى أوصل البشرية إلى انتاجها

وانجازها، وأن نضيف جهودنا إلى جهود كل الذين يطالبون بعالم أكثر عدلا وانصافا ويسعون إلى تحقيقه، وكل الذين يعملون من أجل بيئة لا يموت فيها الإنسان اختناقا بسبب التلوث أو الاستغلال أو التفرقة العنصرية أو الغازات السامة، بيئة تليق بحياة الإنسان وكرامته ومجده.

***

الأصوات التى ترتفع تنديدا وادانه ومطالبة بحظر انتاج الاسلحة النووية وتسعى لخلق رأى عام يدرك اخطارها ويقف موقفا حازما ضدها ويفرض ارادته على السياسيين لكى يضعوا حدا لهذا السباق المجنون من أجل الدمار والفناء، أصوات بدأت ترتفع منذ أن بدأ اكتشاف هذه الاسلحة، ودعوة شارك فيها مفكرون وكتاب وفنانون، يقودون مظاهراتها ويؤسسون وعيا عاما بأخطارها كما يؤسسون وعيا عاما بأخطار الاسلحة الكيماوية والجرثومية التى تكثر الاخبار عن استعمالها فى حروب ونزاعات اقليمية.

ولكنها ظلت دعوة محدودة لم تأخذ معها إلا قطاعات صغيرة من الرأى العام، بينما بقيت الاغلبية تهمل اتخاذ

موقف من هذه القضية، عاجزة عن رؤية الخطر الحقيقى الذى يتهددها.

ولكن العالم اليوم صار يشهد وعيا متناميا ومتزايدا بضرورة ان تتحرر الكرة الارضية من هذه الاسلحة الجهنمية التى تشكل تهديدا بدمار الدنيا وفناء البشرية.

والسبب فيما صرنا نراه من الحاح شديد على هذه الدعوة يأتى من أن مبعث الخطر ومبعث الخوف لم يكن كما كان فى السابق، التهديد الناجم عن حرب عالمية نووية، وإنما صار مبعثه احتمالات الاخطاء التى تقع وتكون سببا فى الكوارث وهلاك البشر دون حاجة إلى نشوب الحرب. إذ يمكن بخطأ فنى بسيط فى تشغيل هذه المفاعلات الذرية ومصانع الاسلحة الكيماوية أن تتسرب أبخرتها وغازاتها السامة لتقضى على جزء من العالم أو جزء من البشرية، وصارت الشعوب التى تنتج هذه الاسلحة اليوم أكثر حاجة لتحرير أنفسها من هذا الرعب باعتبارها أكثر تعرضا للخطر من الشعوب التى لا تنتج هذه الاسلحة. ولعل كارثة تشارنوبل، لم تكن إلا مثالا على ما يمكن أن يحدث من خراب لمنتجى هذه الاسلحة.

لقد تم بسرعة تداركها، ولكن العالم كله وقف مرتعبا خوفا من نتائجها. ولذلك فإن شعوب العالم مهيأة أكثر من أى وقت مضى لأن تمنح تأييدها لكل الاصوات التى تطالب بايقاف هذا الرعب.

إن المبادرات التى ابدتها بعض الدول لحرق مخزونها من الاسلحة الكيماوية وابادته يجب أن تكون سياسة عامة تفرض الشعوب على كل الحكومات اتباعها. والمباحثات الطويلة المضنية التى تتم بين القوى المختلفة للحد من الاسلحة النووية يجب أن تتحول إلى اتفاق على تحريم هذه الاسلحة والقضاء على مخزونها منها. ولاشك أن هذه القوى الكبرى هى صاحبة المصلحة الاولى والرئيسية فى تحقيق انجاز كهذا الانجاز، لأن كل ما قرأناه من قصص وشاهدناه من أفلام روائية يتحدث عن استخدام الاسلحة النووية ويتنبأ باستخدامها، إنما يتمحور حول الصراع بين القوى الكبرى ويجعلها الضحية الأولى لأى حرب تقتضى استعمال هذه الاسلحة، فهى بهذا المخزون الهائل من أسلحة الدمار إنما تسعى إلى هلاكها وهلاك شعوبها قبل هلاك شعوب العالم الأخرى.

وإذا كان لهذه القوى إسهام فى حضارة العصر، وفضل فى الوصول بالمكتشفات العلمية التى تتصل برفاهية الإنسان إلى هذا المدى الذى وصلت إليه، فهى معنية أكثر من غيرها بالمحافظة على هذه المكتسبات التى لاشيء يهددها بالزوال سوى هذا الرعب النووي. بل أن الوصول بهذه الحضارة إلى مشارف أكثر تقدما ونفعا للانسانية يقتضى أول ما يقتضى وقف استنزاف الموارد التى تنفق على انتاج انواع السلاح المختلفة وتسخير هذه الموارد لخدمة أغراض أكثر نبلا وشرفا وتوظيفها فى مجالات علمية توفر لشعوبها وللبشرية ما تحتاجه من غذاء ودواء وتحقق شروطا أفضل لحياة الإنسان فوق كوكب الأرض.

إن الدعوة لتحرير عالمنا من هذه الاسلحة باتت اليوم مسئولية كل انسان يعتبر نفسه شريكا فى هذا العالم، حريصا على بقائه واستمراره.

***

سوف أستغرب كثيرا لو أن هذا الحال استمر طويلا.

فقد صار الابتزاز الصهيونى للشعب الامريكى مفضوحا ومكشوفا وعاريا، لا يستعين بورقة توت واحدة لتغطية سوءاته.

مزاد علنى يقيمه المرابى اليهودى الصهيونى كل يوم أمام أنظار العالم بأجمعه لبيع وشراء الضمير الامريكي، والحلم الامريكي، والعلم الامريكي، والدستور الامريكي، وقيم العدل والحرية والمحبة والسلام التى كانت تمثلها الدنيا الجديدة لهاربين من الظلم الاجتماعى والاضطهاد الدينى فى سابق العصور والازمان، لا أحد يتولى مسئولية فى أمريكا هذه الايام، ومهما كانت صغيرة وتافهة، إلا إذا اجتاز الاختبار الصهيونى وتوافق مقاسه مع مقاس المسطرة الصهيونية وحظى بمباركة اصحاب الجاه والنفوذ من أعضاء اللوبى الصهيوني. وما أن يصل إلى مكتبه حتى يجد نصا صهيونيا مكتوبا بأحرف عبرية ويحتوى تعاليم تلمودية ترسم له سياسته وبرامج عمله وما يقوله من تصريحات وما يدلى به من أحاديث، وسينال عقابا عظيما لو أنه فكر لحظة واحدة فى الخروج على النص واضافة كلمة واحدة من اجتهاده إلى سطوره. ونشهد اجماعا عالميا فى الجمعية العامة للأمم

المتحدة بادانة سلوك أو تصرف اسرائيلى فلا نجد أحدا يخرج على هذا الاجماع ويرفع يده مع ممثل الكيان الصهيونى معارضا ومحتجا إلا مندوب أمريكا، ولانجد قرارا يتفق عليه اعضاء مجلس الامن بما فى ذلك اصحاب اسرائيل من حكام الغرب ويمثل مساسا بسياسة الارهاب والعدوان والتوسع لدولة الكيان الصهيونى إلا وجاءت أمريكا تستخدم حق النقض فى هذا القرار.

ونرى رجلاً من أصل عربى يرشح لمنصب ادارى فإذا بالدوائر الصهيونية تدق نواقيس الخطر وتذهب للتفتيش فى سجله وتاريخه علها تجد نقطة واحدة فى حياته توحى بأنه خالف تعاليمها فلا تجد، ومع ذلك تقيم الدنيا وتقعدها حتى يأتى طائعا، صاغرا، يثبت لهذه الدوائر أن ولاءه الدائم ليس لأمريكا وإنما لسدنة وحراس الدولة الصهيونية.

وهكذا اصبحت السياسة الامريكية ارتهانا كاملا لهذه الاقلية الضئيلة من المرابين الصهاينة، أقلية صغيرة لاتساوى واحدا فى المائة من تعداد الشعب الامريكي، لاتملك شرعية إلا شرعية التعصب والابتزاز والمباذل الاخلاقية ولاتحمل

أى ولاء لأمريكا وإنما تقدم ولاءها كاملا لإسرائيل وتعلنه وتفاخر به جهارا ونهارا.

ومع ذلك تتحكم فى مقدرات أمريكا وترسم لها سياساتها وتسوق سكانها كالسائرين نياما باتجاه اغراضها واهدافها، وتلطخ وجه أمريكا بالاوحال وتؤلب الرأى العام العالمى ضد سياستها وتجعل تمثال الحرية الذى يحمل شعلة الثورة على الظلم والاضطهاد أضحوكة ومسخرة، وتحيل العلم الامريكى بنجومه الكثيرة التى اضاءها رجال كبار أمثال جورج واشنطن وأبراهام لينكولن إلى علم إسرائيلى يحمل نجمة واحدة هى نجمة داود، وتجعل الحلم الامريكى الذى صنع منه الكتاب والادباء والشعراء من أمثال والت ويتمان وروبرت فروست وأرنست هيمنجواى ووليام فولكنر وجيمس بالدوين أملا ووعدا يصبح كابوسا يداهم الشعوب الصغيرة المناضلة مثل الشعب الفلسطيني. وصارت السياسة الامريكية التى يقودها المرابى اليهودى الصهيونى امتهانا واحتقارا للشعب الامريكى بكل فئاته وفصائله بقدر ما اصبحت اساءة واستهتارا بمشاعر أمة كبيرة هى الأمة العربية التى انتظرت مدة أربعين عاما أن ترى ميزان العدل

الامريكى يتحرك قليلا ويساوى بين كفتيه دون فائدة أو جدوى، فقد ظل هذا الميزان مائلاً لصالح العدو الصهيونى مهما تغيرت الادارات والرئاسات. وتسطع فى فلسطين المحتلة دماء الشهداء من أبطال الحجارة الذين يخوضون ملحمة نضالية اثبتت للعالم كله جدارة هذا الشعب بأن يعيش كريما فوق أرضه وتحت سمائه، فإذا بالمرابى الصهيونى يضع لفافة سوداء فوق أعين وأفواه السياسة الامريكية بحيث لا ترى ولاتسمع ولا تتكلم.

ويشهد العالم كله بأن الحركة الصهيونية حركة عنصرية مثلها مثل الفاشية والنازية إلا فى أمريكا فهى حركة انسانية تستحق التأييد والتمجيد.

ويشهد العالم كله بأن اسرائيل تحتل أرضا عربية ظلما وعدوانا إلا أمريكا التى لا ترى فى هذا الاحتلال إلا محافظة على الحدود الآمنة لدولة اسرائيل المحبة للسلام.

ويشهد العالم كله بأن ما تفعله اسرائيل فى الارض المحتلة انتهاكا لحقوق الإنسان واستهتارا بالشرعية الدولية، إلا أمريكا فهى ترى أنه تعزيز لحقوق الإنسان واحترام للشرعية الدولية.

ويشهد العالم كله لمنظمة التحرير بأنها منظمة كفاح ونضال ودفاع عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى إلا أمريكا التى تعتبرها منظمة قتل وإرهاب وعدوان.

ومهما أسهبنا فى القول بأن اسرائيل ليست إلا قاعدة أمريكية متقدمة وكلاب حراسة للمصالح الامريكية فإن ذلك كله لا يبرر الارتهان الامريكى لكلاب الحراسة الصهيوني، فقد تجاوز الأمر حد المصالح المشتركة ليصبح استغلالا بشعا كريها لشعب بكامله واحتقارا لقيمه ورموزه وتاريخه.

ولا أدرى متى يفيق الشعب الامريكى لهذا الابتزاز، ولكننى سأجازف بالقول بأن الحال لن يستمر طويلا لو أن الاقطار العربية والبلاد الاسلامية اتخذت موقفا صارما وموحدا تجاه هذا المرابى الصهيونى الذى يدير السياسة الامريكية وأفهمت الشعب الامريكى بأنه قد حان الوقت لأن يتحرر من هذا الارتهان ويرفض هذا الابتزاز الصهيونى إذا أراد أن يحافظ على مصالحه وعلاقاته ببلاد العالم العربى والإسلامي.

***

تتحجج الأنظمة الشمولية التى تمنع حرية الرأى والتعبير وتعبئ حناجر البشر بالطين وتضع الاقفال والكمامات على أفواه المواطنين وتصادر حقهم فى الكلام والاحتجاج، بأن مهمة البناء والتنمية وتوفير الكساء والغذاء وتحقيق الكفاية والعدل تتعارض وتتضارب مع ترف الاختلاف واتاحة الفرصة للرأى الآخر.

لأن الإنسان كما تقول هذه الأنظمة لا يستطيع أن يكون حرا قبل أن يتحرر اقتصاديا، فلا حرية لإنسان يشقى فى سبيل الحصول على غذائه أو كسائه أو دوائه، ولذلك فإن هذه الانظمة تقمع الرأى الآخر لأنها ترى بأن مهمتها الاساسية هى توفير هذه الاحتياجات المعيشية للمواطنين دونما حاجة إلى ما تسمية مجتمعات الترف حرية الرأى والتعبير.

ولست هنا بصدد مناقشة هذه الحجج التى تسوقها الانظمة الشمولية تبريرا لسلوكها ومنهجها فى الحكم والسياسة، فهى حجج تستند إلى افكار وفلسفات قد تكون خاطئة أو صائبة، ولكن ما أريد أن أقوله بأننى لا أعتقد بأن هناك كارثة تحل بالإنسان أكثر من كارثة أن يجد نفسه

ممنوعا من التعبير عن رأيه، غير قادر على أن يفتح فمه بكلمة واحدة تتعارض مع قرارات تهبط فوق رأسه وتتعلق بحياته ومصيره وحاضره ومستقبله، وعليه أن يقبل بها صامتا صابرا مهما كان رأيه فيها، مرغما على أن يبقى فمه مقفولا.

لقد تعددت المدارس الفكرية التى تجتهد فى وضع تعريف للانسان فتسميه أحيانا بالحيوان العاقل، تمييزاً له على الكائنات الاخرى التى تنتمى لدنيا الحيوانات، وتسميه أحيانا بالحيوان الناطق، وتحدد أحيانا قيمته بالقدرة على التفكير والكلام، وما عدا ذلك من غرائز ووظائف وحواس فهو يشترك فيها مع بقية الكائنات من بهائم وهوام. وهذه الخصائص التى ميزت الإنسان هى ما تسلبه منه الانظمة الشمولية.

إنها تمنعه من التفكير ومن استعمال عقله عندما لا تتيح له فرصة أن يقول رأيه. وفوق هذا وذاك فإن هذه الانظمة الشمولية تمنعه من أن يتفوه بأية نأمة ضجر أو شكوى، تضع لجاما فوق فمه وتعاملها كأنه حيوان أبكم،

وهكذا فهى تسلب كل نعمة منحها ا لهذا الإنسان حتى جعله خليفته فى الارض وتهبط به إلى مستوى أدنى الكائنات.

ولا أدرى مدى ما يلحقه هذا المنهج فى التفكير من اضرار بالاوطان والمجتمعات، فلعل له نتائجه فى اشادة الأبنية وانشاء الطرقات والمعامل التى تأتى على حساب التضحية بانسانية الإنسان وتحوله إلى ترس فى آلة تدور، ولكن ما يهمنى التذكير به هو ما يلحقه هذا السلوك من اضرار بالمواطن الفرد، وبعيدا عن حقوقه التى اغتصبت وحرمانه من ممارسة حياة طبيعية كغيره من البشر. فإن هذا المواطن سيكون عرضة لعلل وأمراض لاحصر لها نتيجة عجزه عن تصريف هذه الطاقة التى تجعل من الإنسان انسانا. ان هذا المواطن الذى عاش مرغما على أن يكتم كلمته داخل صدره فلا يستطيع أن يبوح بها مهما كان سخطه أو غضبه ويقمعها يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، سوف يكتشف ان هذه الكلمة المقموعة المكتومة الممنوعة من الصرف، قد تحولت إلى طاقة مكبوتة تدمره روحا وبدنا. ولا أدرى إن كان هناك إحصاء للأمراض التى تنتشر فى كل مجتمعات العالم، ولكننى على يقين بأن هذه المجتمعات التى

ينتشر فيها القمع والاستبداد حتى تحولت إلى مزارع للحيوانات البشرية تضرب الرقم القياسى فى عدد العلل والامراض التى تصيب أهلها.

***

تدفع جزيرة مالطا بالفائض من ابنائها إلى استراليا وكندا وأمريكا يتدبرون لهم رزقا وحياة هناك، لذلك فإن ما يوازى أربعة أضعاف سكانها من المالطيين يعيشون فى أرض المهجر، وضمن لها هذا النزوح الكبير إلى أرض الغربة أن تعيش بمنجاة من أزمة السكن والمواصلات والتموين والبطالة.

ومع انها تنتهج منذ أمد بعيد سياسة دولة خارجية معتدلة ومتوازنة وحققت لنفسها استقلالا كاملا عن الدولة الكبيرة التى كانت ترتبط بها، وهى بريطانيا التى رحلت بقواعدها العسكرية الجوية والبحرية بناء على طلب حكومة العمال واصرارها، فقد فعل أهل الجزيرة ذلك دون أن يكون لهم جيش ينفقون على تسليحه وتموينه ودفع المرتبات

للمنخرطين فيه، لأنهم أوكلوا الدفاع عن جزيرتهم إلى دولة أوروبية تجاورهم هى ايطاليا، وضمنوا نتيجة لذلك توجيه كل مواردهم لأغراض البناء وتحقيق الرخاء لأنفسهم، وهم فعلا يعيشون حياة يسر ورخاء بفضل الموارد التى تأتى عن طريق السياحة وصيد السمك وجباية الموانئ وأحواض السفن الجافة وبعض الصناعات الصغيرة وما يبعث به المالطيون الذين يعيشون فى أرض المهجر وما يحصلون عليه من معونات الدول الغنية، ولديهم من المزارع والمراعى وحظائر الدواجن ما يسد حاجتهم وحاجة ضيوفهم من السواح إلى الخضار والفاكهة واللحوم.

وتنتهج الجزيرة فى حياتها السياسية نظاما ليبراليا يعتمد على تعدد الاحزاب وحرية الصحافة والتجارة الحرة، ويتناوب على حكم هذا الشعب الصغير الذى يبلغ تعداده ثلاثة أرباع المليون، حزبان كبيران هما حزب المحافظين وحزب العمال.

وأطرف ما يرد به عليك المالطيون عندما تشير إلى احدى الحقائق التى تتصل بلغتهم وكونها لغة عربية أفسدتها

اخلاط من الايطالية والانجليزية فانحرفت بها عن مسار اللغة العربية الصحيحة، هو قولهم:

إنكم أنتم أيها العرب من يتكلم لغة مالطية محرفة!

فهم يعتزون اعتزازاً كبيرا بهذه اللغة التى لحقها الانحراف والتشويه. وفى سبيل تأكيد شخصية وطنية متميزة بثقافتها ولغتها، تخلو عن الاستعمال الرسمى للغة الانجليزية، وصنعوا من الاحرف اللاتينية أبجدية جديدة تتفق مع لغتهم وأساليب نطقهم واستعمالهم لها، وجعلوها لغة مكتوبة صالحة للاستعمال الشعبي، وصاروا يصدرون بها الصحف ويتحدثون بها فى الاذاعتين المسموعة والمرئية.

ولا زالت أغلب الاحياء فى جزيرة مالطا تحمل أسماء عربية مثل المدينة والجزيرة وسليمة وأبو جبة والموسطة وغيرها برغم أن فرسان القديس يوحنا الذين تمركزوا فى مالطا بعد خروج العرب منها حاولوا إزالة كل أثر للوجود العربى الاسلامى هناك، ولذلك اشتهر المثل الذى يقول كالمؤذن فى مالطا باعتبار أن هذا المؤذن لن يجد من ينصت إليه من أبناء الجزيرة المتعصبين تعصبا كبيرا لكنيستهم الكاثوليكية، ولكن هذا التعصب ينتمى إلى أزمنة مضت، فقد

صارت مالطا ترتبط بعلاقات وثيقة بالبلاد العربية والاسلامية، وصار صوت الآذان يرتفع خمس مرات فى اليوم من مسجدها الكبير الذى يحتل قلب الجزيرة.

لقد ذهبت إلى مالطا سائحا عدة مرات، كما ذهبت اليها فى مهمات تتصل بالتبادل الثقافي، وألقيت المحاضرات فى جامعاتها وأنديتها الثقافية عن الأدب العربى والتقيت بمثقفيها الذين يؤمنون بعمق الروابط التى تربطهم بالعالم العربى ويجتهدون فى تعلم اللغة العربية التى لا تقتضيهم عناء كبيرا لأنها مصدر أغلب المفردات التى يتكلمونها، ومعنى ذلك أنهم يستطيعون بجهد بسيط الاحاطة بها والانفتاح على الآفاق الواسعة الرحبة التى تتيحها هذه اللغة.

وكلما سافرت إلى هناك ورأيت أهل هذه الجزيرة وهم يخرجون كل مساء إلى الساحات والشوارع والشواطئ ويصنعون مهرجانا يوميا احتفالا بالحياة طرحت عن كاهلى ما أحمله من تعب وقلق وعناء، واسلمت عقلى وقلبى لهذه الاجواء الاحتفالية التى لا تعبأ بكل ما يملأ العالم من مشاكل وهموم وصراعات.

***

آخر الساقطين من سدة الحكم والسلطة، والذاهبين إلى صمت التاريخ وظلامه، طاغية صغير، كان يحكم ليبيريا، اسمه صمويل دو، وهو شاويش وجد فى يده بندقية، وتحت سلطته مجموعة من الفقراء، فقرر أن يستخدم هذا السلاح وهذه السلطة استخداما إجراميا. وبدل أن يسطو على دكانة لبيع العملة، أو وكالة مصرفية، كما يفعل أمثاله من أعضاء العصابات الهاربين من الخدمة العسكرية، قرر أن يسطو على ممتلكات الشعب بأكمله، ويسرق الوطن بكل دكاكينه ووكالاته ومخازنه ومصارفه وبيوته، اسمى نفسه جنرالا، ووضع على صدره نياشين الانتصارات الوهمية، لأنه لم يخض إلا معركة واحدة هى معركته مع شعبه، ولم يحقق إلا انتصارا واحدا هو انتصاره على وطنه عندما ابتلاه بالمجاعات والتشرد والفتن والمجازر والحروب الاهلية، وظل يسرق موارد البلاد ويبعث بها إلى شريك له فى عملية السطو يملك دكانة فى إحدى المدن الغربية التى تتاجر بمآسى العالم الثالث، ولكن هذا الطاغية البائس الصغير، لم يستطع أن يستفيد من الدرس الكبير الذى أبقاه له تاريخ الجلاوزة

والطغاة صغارا وكبارا، وهو أن السبب الأول فى سقوطهم والباعث الأوحد على مقتلهم كان دائما خداع النفس.

نسى لص ليبريا هذا الدرس، وأوهمته نياشينه الكاذبة وألقابه الوهمية، وصفات المجد والخلود، التى ينسبها إلى نفسه ويملأ بها اذاعته وجريدته إنه حقا مخلوق نادر يختلف عن الكائنات الفانية، وأن الارض يجب أن تحميه، والسماء يجب أن ترعاه، والزمان يجب أن يقف خشوعا له، لأن النساء لم تلد رجلا مثله. وأن حاكم هذا البلد المسكين الذى سطى عليه سطوا يجب أن يبقى حكرا عليه إلى الأبد. ولذلك فقد كانت الارض تميد تحت قدميه بفعل الثورات والانتفاضات الشعبية وهو متشبث بكرسى الحكم، رافضاً أن يتزحزح عنه والحرائق تحاصر بيته وتنشب فى ملابسه، وهو سادر مع أحلام المجد الذى لن يزول وظل إلى آخر لحظة يخدع نفسه قائلاً بأن الأحداث الجسام تنقضى والازمنة الصعبة تمضي، ولكن رجال المهمات التاريخية باقون.

سقطت البلاد فى أيدى المتمردين، وجاءت جيوشهم تحتل الموانئ والمطارات فى عاصمة حكمه، وهو قابع فوق عرشه المصنوع من جماجم القتلى، من حوله براكين الدم،

وفوق رأسه تتهاوى أعمدة القصر، وهو عاجز عن رؤية هذه الزلازل وهذه البراكين والصواعق، كما عجز عن رؤيتها كل الطغاة الذين سبقوه، عندما ظنوا أن النياشين والألقاب ستكون درعا يحميهم من الموت، فكان ذلك الوهم وخداع النفس هو النعش الذى صنعوه لأنفسهم.

لقد انتهى صمويل دو، ولكن كوارث الحكم فى عالمنا الثالث لا تنتهي، والحلم الافريقى الذى يبشر بزمن الخلاص والانعتاق وحرية الإنسان، مازال حلما يمتنع عن التحقيق، فها هى افريقيا التى عاشت خمسة قرون ضحية الحملات الهمجية التى تتاجر بالدم الأسود، مازال دم أبنائها مهدورا بأيدى طغاة من أهلها، يتناسلون مثل العقارب وسط أدغالها ويصادرون كل فرص التقدم والحرية التى تلوح لشعوبها.

***

أصبح واضحا لدى بلدان العالم الثالث أن الغول الذى يلتهم أى زيادة فى الانتاج ويبطل مفعول التنمية والتعمير ويمنع هذه البلدان من الوصول إلى مجتمع الرخاء والرفاهية

هو هذا الازدياد المهول فى عدد السكان الذى فشلت أجهزة التوعية والتخطيط فى السيطرة عليه.

لقد بذلت البلدان التى تعانى من هذه المشكلة جهودا كبيرة للتغلب على هذا الخطر الذى يهدد فرص التقدم والنماء ورصدت الميزانيات الطائلة للقيام بحملات التوعية وبرامج تنظيم الأسرة وتحديد النسل واستخدمت بعض الدول أجهزة الجيش والشرطة لإرغام المواطنين على أخذ الحقن التى تمنعهم من التناسل بعد إنجاب عدد محدود من الأطفال. ولكن دون فائدة أو جدوى فقد ظل الناس فى هذه البلدان يتناسلون ويتكاثرون ويستهزئون بسياسات الحكومات ومخططاتها ويرفضون أى استجابة لنداءاتها وتوسلاتها وظلت بعض الجهات تقف موقفا معاديا من دعاوى تحديد النسل كما فعلت دولة الفاتيكان بمجموع الشعوب ذات الأغلبية الكاثوليكية حيث اتخذ البابا الحالى للكنيسة موقفا متشددا فى معارضته لسياسات الدول التى تسعى لتحديد النسل برغم ما تعانيه البلدان الفقيرة من ديون ومصاعب اقتصادية كما هو الحال مع شعوب أمريكا اللاتينية. وهو موقف أثار سخط كل القيادات الفكرية والسياسية فى هذه البلدان وغضبها واعتبرته

تعنتا يفتقر إلى الحد الادنى من التعاطف الإنسانى الذى أمر به الدين المسيحى !.

والمفارقة العجيبة هى أن الدول الصناعية ذات الوفرة والغنى تعانى الآن ضمورا فى عدد سكانها نتيجة لامتناع أهلها عن التكاثر والإنجاب فصارت تضع البرامج والمخططات وتقوم بأوسع الحملات الدعائية تشجيعا لشعوبها على الإنجاب ومحاربة تحديد النسل الذى زاد عن حده وبات يهدد بنضوب واضمحلال القوة الشبابية لهذه البلدان، وأصبحت تضع الحوافز وتقدم الجوائز للعائلات التى تنجب أكثر عدد من الاطفال، ولأن معدل الإنجاب لدى كل عائلة هو طفلان فقد وضعت أغلب هذه الدول حوافز للتشجيع على إنجاب الطفل الثالث الذى صار الآن طفلا مدللا يتمتع بالمزايا والهبات والمكافآت التى تمنحها له الدولة منذ لحظة ميلاده، فيما تعانى الدول الفقيرة البائسة من هذا الفائض البشرى الذى يشكل عبئا على مواردها المحدودة وتقوم بالحملات الدعائية فى الاتجاه المعاكس دون فائدة.

لقد جاء التقدم العلمى الهائل الذى شهده هذا القرن لكى يتيح أوسع الفرص لاستغلال الموارد الموجودة فى عالمنا

بحيث أسهم الإنجاز العلمى فى الارتفاع بمستويات المعيشة وسد احتياجات الإنسان وحمل عبء مواجهة هذه الموجات الوافدة من المواليد الجدد وبرغم ذلك فسيبقى من الصعب تحقيق توازن بين زيادة الإنتاج وزيادة عدد السكان. وسيبقى هاجس السيطرة على الانفجار السكانى ينال اهتمام القيادات الفكرية والسياسية.

***

واحد من الدروس التى يمكن استخلاصها من تجربة الثورة الايرانية ان هناك قوى مؤهلة للتدمير ولكنها ليست مؤهلة للبناء. لقد أبدت هذه الثورة نجاحا هائلاً فى تقويض النظام الشاهنشاهى وتهديمه فى إيران، واسفرت منذ اللحظات الأولى لتفجرها عن قوة تدميرية هائلة استطاعت فى أشهر معدودة أن تقتلع عرش الطاووس الذى يفتخر أن له امتدادا فى التاريخ يصل إلى آلاف السنين. اندلاحت الجماهير الفقيرة البائسة عبر الشوارع والميادين تلبى نداء الثورة وتستجيب لأوامر الموت، عزلاء من أى سلاح إلا كلمة »ا أكبر«

تقتحم بها الحصون وترسانات السلاح التى يملكها الشاه وجيشه وسافاكه، وتواجه أكبر آلة حربية اعدها الشاه للفتك والدمار، وتتلقى بصدورها العارية القنابل والرصاص دون خوف أو رهبة. انطلقت هذه الجماهير تقدم أرواحها وقودا لحلم الخلاص وبناء دولة المستضعفين فى الأرض حتى اضطر الشاه إلى الفرار بأسرته ليموت وحيدا وغريبا ومجردا من كل مظاهر العظمة والسلطان التى احاط بها نفسه طوال سنوات حكمه، سقط نظام الشاه ونجحت الثورة التى قادها آية ا الخمينى وعاد القائد إلى ايران عودة المنتصرين لتبدأ الثورة الايرانية مرحلة جديدة هى مرحلة البناء والتشييد بعد أن انتهى تدمير النظام القديم وتقويضه.

ولأن الديناميت الذى نفجر به بناء قديما لا يمكن أن نبنى به بناء جديدا، فقد كان الخمينى وملاليه مثل الديناميت الذى يملك قدرة عظيمة على التدمير ولا يستطيع أن يكون شيئا آخر غير ذلك، لقد واصل نظام الخمينى حتى بعد أن انتصرت الثورة ودخل فى مرحلة بناء الدولة الجديدة مهمته التدميرية التخريبية ولكن هذه المرة لنظامه ودولته وضد جماهيره التى ضمنت له المجد والانتصار. بدأ أول ما بدأ

بوجبات الإعدام التى نالت أبناء الثورة ذاتها، وطارد كل المناضلين القدامى الذين حاربوا معه نظام الشاه، ألغى جميع تنظيماتهم وأرسل بأعضاء هذه التنظيمات إلى المقاصل والسجون والمنافي، وحارب الأدباء والكتاب والفنانين والمبدعين، صادر الصحف والمجلات وأغلق المسارح ومراكز الفنون والثقافة وأقفل لعدد من السنوات المعاهد والجامعات وأعاد المرأة إلى عصر الحريم وواصل سفك الدماء وقتل الأبرياء من أبناء شعبه، ثم أشعل حربا من أكثر حروب الدنيا شراسة ورعبا، لا هدف لها ولا معنى إلا التأكيد على رسالته التخريبية التدميرية، وتوالت الانهيارات كمحصلة طبيعية لهذه الروح التى جبلت على النسف والتدمير بدل البناء والتعمير، وأعاد البلاد ألى أكثر العصور ظلاما وعصبية وجاهلية. ولاشك أن الشعب الايرانى الذى انتظر أن يتحقق بناء دولة المستضعفين على يديه قد أدرك الآن أن الخمينى ومن معه من فقهاء وملال لا يمكن أن يفلحوا فى البناء لأنهم كأصابع الديناميت لا يجيدون شيئاً سوى الهدم والنسف والتخريب.

***

تم هروبه من فرنسا عائدا إلى بونجي بأمل أن الناس هناك سوف يفرحون به عندما يشاهدون باعجاب محاكمته على جرائمه التى تفوق جرائم كل المجانين الذين وصلوا إلى الحكم من قبله ابتداء من قتل أطفال المدارس الذين لا يملكون نقودا لشراء الملابس من حانوته، إلى أكل لحوم البشر والاحتفاظ بها فى مخازن التبريد، وسوف يجدونه حاكما يليق بهذا الزمان فيعيدون تنصيبه امبراطورا مرة أخري.

ولعدة سنوات ابتلى هذا الشعب الافريقى الصغير بهذا الحاكم المجنون الذى اذاقه العذاب لسنوات طويلة قبل أن تقرر فرنسا التدخل لعزله وانقاذ الشعب فى افريقيا الوسطى من جنونه واجرامه. وأذكر أن اصدقاء كثيرين كانوا معجبين بهذا الحزم الذى مارسته فرنسا مع حاكم مستعمرتها القديمة مؤكدين على أن هذا النفوذ الذى تمارسه بعض الدول الصناعية الكبيرة على الدول المتخلفة الصغيرة له أحيانا جوانبه الايجابية، فها هى فرنسا تنقذ شعبا من تعذيب ذاته وتقوم بتخليصه من براثن حاكم من أكلة لحوم البشر. عين نفسه امبراطورا على طريقة نابليون الأول، وأهدر أموال هذه البلاد الفقيرة البائسة وأنفقها على نفسه، وقام بالاستيلاء

على الحوانيت والفنادق وحرر عقد تمليك شخصى بها وأمر الناس بشراء بضائعه وجعل القتل عقوبة من يمتنع عن الشراء ولولا فرنسا لظل هذا البوكاسا ينهب ويقتل ويأكل لحوم أبناء شعبه إلى اليوم.

هكذا كان بعض الاصدقاء يكبرون الدور الفرنسى فى إزاحة بوكاسا ولكن هؤلاء الاصدقاء ينسون أنه لولا فرنسا ما كان لشعب مثل أفريقيا الوسطى أن يبتلى بهذا الحاكم. فبوكاسا أساساً ليس إلا صنيعة فرنسية، إنه طفل مشوه من أطفال المؤسسة الاستعمارية، فى ظلها نما، ومن حليبها رضع، وبوسائلها ودعمها وقوتها وصل إلى السلطة وبتأييد منها بقى فى الحكم إلى أن جاوز الحد فى جنونه واجرامه فقررت الدولة الكبيرة عزله واحلال قريب له بدلاً منه. ان فرنسا التى ظنها هؤلاء الاصدقاء دولة الانقاذ والخلاص انما هى أصل الداء الذى اصاب افريقيا الوسطي. وليس هناك من خلاص حقيقى لدولة افريقية صغيرة مثلها إلا بأن ترفع دولة الاستعمار القديم يدها عن شئونها وتترك أبناء الشعب هناك يختارون حكامهم بإرادتهم الحرة دون عسف أو قهر. فلاشك أن هذه الشعوب برغم فقرها وبؤسها وجوعها قادرة على

اختيار حكام حقيقيين يخدمون مصالحها مثلها مثل شعوب العالم المتقدم ولكن هل يرضى العالم المتقدم؟

***

مرة أخرى تظهر جزر المالديف فى الاخبار.

ظهرت فى المرة الماضية موضوعا لتوقع فاجعة، تتحدث عن احتمال أن تغرق هذه الجزر تحت مياه البحر بعد ثلاثين عاما.

وظهرت هذه المرة موضوعا لمسرحية هزلية ساخرة، ومجموعة من القراصنة يأتون عن طريق البحر ويحاولون السطو على وطن.

ليست أول حادثة فى التاريخ ولن تكون الأخيرة.

عصابة من اللصوص أرادت فى البداية أن تذهب لسرقة مخزن للغلال، أو دكانة لبيع الأقمشة، أو حانوت للمجوهرات، أو فرع لأحد المصارف، ثم فجأة تبرق فى ذهن رئيس العصابة فكرة جديدة، لماذا لا نسرق الوطن كله بأسواقه ودكاكينه وغلاله ومصارفه ومجوهراته.. ومواطنيه، وإذا كان الأمر كله سرقة لها محاذيرها، فلماذا نجازف بحياتنا من أجل عملية سطو صغيرة محدودة ولا نجازف بها

فى سبيل كسب أكبر وأعظم؟ لماذا نسرق مالا قليلا نعيش بعده مطاردين ملاحقين، ولا نسرق وطنا بكامله.

فكرة لا يقدر عليها إلا الافذاذ من اللصوص والقراصنة المغامرين. وهكذا مضوا يرسمون خطتهم للاستيلاء على جزر المالديف بأهلها وحكامها وتاريخها.

ولا أدرى مدى العلاقة بين تلك الفاجعة المتوقعة وبين هذه المهزلة الساخرة. فلعل هؤلاء القراصنة والمرتزقة واللصوص قد قرءوا ذلك التوقع وظنوا أن وطنا يواجه مثل هذا المصير لن يجد أحدا يدافع عنه، ولن يبقى لدى أهله من الحوافز ما يدفعهم لتقديم أرواحهم فداء له، ولذلك كان اغراء المغامرة كبيرا، وكانت المجازفة محسوبة حسبة دقيقة بمعايير السراق واللصوص، فبرغم ان ما تبقى من عمر هذا الوطن هو ثلاثة عقود بحسب ما يقول ذلك التوقع إلا أنها تكفى لأن ينعم هؤلاء اللصوص بخيراته وإذلال مواطنيه قبل مجيء الطوفان.

وهذه بالتأكيد ليست المرة الأولى التى يحاول فيها القراصنة واللصوص الاستيلاء على وطن بكامل أهله وترابه واعلامه وتاريخه، فقد حدثت محاولات أخرى سابقة ولقد

رأينا أفلاماً تصور مثل هذه الحوادث كما قرأنا روايات تسجيلية كتلك الرواية التى كتبها روائى بريطانى اسمه فورسايت عن محاولة شارك بنفسه فى تنفيذها مع مجموعة من المرتزقة للاستيلاء على دولة افريقية ثم صاغها بعد ذلك فى عمل روائى عنوانه كلاب الحرب.

وإذا كانت هذه المحاولة للسطو على بلاد المالديف قد احبطت كما احبطت محاولات كثيرة غيرها فلاشك أن بعض هؤلاء القراصنة والمرتزقة واللصوص قد افلحوا فى مناسبات أخرى ونجحوا فى مهمتهم، ووصلوا فعلاً إلى حكم شعوب ومجتمعات.

إذ ماذا يمكن أن نسمى هؤلاء الحكام الذين يتاجرون علنا بالحشيش فى أمريكا اللاتينية ويديرون شبكات لتهريبه ويحولون الجيش والشرطة إلى عصابة كبيرة تتاجر بالمخدرات والحشيش والدعارة؟ وماذا نسمى بعض هذه الانقلابات العسكرية مثل التى حدثت أخيرا فى هاييتى بعد الاطاحة بجزار تلك الجزيرة ورئيس عصابتها بيبى دوك، وكأن حكم العصابات هناك بات تقليدا من تقاليد البلاد، وما أن يصل عسكرى إلى السلطة عن طريق التآمر ويأخذ غفوة

من النوم حتى يظهر آخر ويؤلف عصابة جديدة يقفز بها على الحكم وبدلاً من أن يذهب لنهب أحد الدكاكين أو الاسواق يستولى على مقدرات البلاد ويبدأ باستنزاف مواردها والبطش والتنكيل بأهلها، أليست هذه كلها صوراً من صور القرصنة واللصوصية فى أبشع مظاهرها برغم أن الذين يقومون بها من أهل البلاد أنفسهم، ناهيك عن بعض عمليات السطو الكبيرة التى كانت موضع تآمر دولى وتواطؤ عالمى مثل ما حدث فى فلسطين.

لقد تطورت فى عالمنا الحديث أساليب الحكم وادارة المجتمعات والشعوب، ولكن بعض مظاهر السلوك البدائى مازالت ترافق رحلتنا وتشير إلى جيوب التخلف التى تملأ عصرنا وعالمنا، وفى حين حققت بعض أنظمة الحكم الحديثة مستوى معيشيا راقيا لمواطنيها يحفظ لهم حريتهم وكرامتهم ويتيح لهم مجالا للعطاء والابداع والتألق، تبقى مجتمعات أخرى تعانى العسف والمذلة والهوان، ويعيش إنسانها ذليلاً محتقرا تحت نعال الطغاة والمغامرين والمرتزقة واللصوص والقراصنة.

***

قرأت التقرير الاخبارى الذى نشرته الصحف عن جزر المالديف وما احتواه من تنبؤات العلماء الذين يقولون بأن هذا الوطن وهذه الأمة التى تنتمى إليه قد يختفيان من الوجود فى حدود ثلاثين عاما بسبب الارتفاع فى نسبة ماء البحر.

وقرأت خبرا قبل هذا يقول أن جزر المالديف التى تتجاوز الألف جزيرة والتى يعتمد سكانها القوارب وسيلة وحيدة للتنقل، تختفى أغلبها تحت ماء البحر فى فصل الشتاء ولا يبقى منها إلا عدد محدود من الجزر هو الذى يشيد عليه الناس بيوتهم.

وإذا كان حاكم جزر المالديف السيد مأمون عبد القيوم قد توجه بنداء إلى دول الكومنولث لكى تساعده بامكانياتها التقنية على درء خطر الفناء الذى يهدد بلاده، فلاشك أن الدول الاسلامية أيضا معنية بتقديم واجب العون والمساعدة لتلافى هذه الكارثة إذا كان بإمكان الجهد البشرى تلافيها.

ولكن الخبر فى حد ذاته يثير فى الذهن شتى التداعيات والشجون حول ظهور واختفاء الامم والشعوب والاوطان، فهذه دولة باختامها واعلامها ومؤسساتها الدستورية ونظامها الرئاسى وقوانينها وأعيادها القومية ونشيدها الوطني، بمدارسها ومستشفياتها وسجونها وجيشها وشرطتها، عضو هى فى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى، لها سفاراتها وقناصلها فى بلدان العالم الأخرى وتربطها المعاهدات الثقافية الاقتصادية بغيرها من الدول تصبح فجأة مهددة بالاختفاء من الوجود فى زمن قصير لا يزيد مداه على ثلاثة عقود. وهى لاتواجه غزوا أجنبيا يأتى لاستعمارها ويمكن أن تعيش فى ظله، أو مع احتمالات تحررها منه فيما بعد، ولاتواجه أطماع دول مجاورة أكثر منها قوة تريد أن تضمها إلى اراضيها وتجعلها ولاية من ولاياتها بحيث يستمر وجودها فى الحياة حتى ولو فقدت اعلامها ونشيدها، وإنما تواجه طوفانا من ماء البحر يأتى ليغمرها. وكأنه صورة مصغرة لذلك الطوفان الذى تتفق الاديان على انه سيغمر الدنيا يوم أن يأذن ا بفناء البشرية. وهو مصير مهول لا يخفف من هوله إلا أن سكان هذه الجزر يعرفون مسبقا

بقدومه فيستطيعون تدبير وسيلة النجاة بأرواحهم حتى لو فقدوا البيت والوطن.

وطن يختفى من الوجود، وهو الذى تنافست الدول الكبيرة على كسب ولائه، وتسابقت الشركات على غزو أسواقه، وتبارت البلاد التى تملك الاساطيل من أجل أن تجد فيه معبرا لسفنها أو ميناء لتزويدها بالوقود وناشدت شعوب أخرى شعبه ودولته من أجل الحصول على صوت مندوبه فى الامم المتحدة تحقق به نصرا لمواقفها وقضاياها ويذهب رئيس دولته لزيارة الدول الاخرى فيجد رئيسا بانتظاره، ويمدون البساط الاحمر لاستقباله ويرفعون فى الشوارع أعلامه ويأتون بفرق الموسيقى النحاسية تعزف نشيد دولته، فجأة يصبح هذا الوطن جزراً يغمرها الماء وملعبا للحيتان والاسماك، يغرق ويغرق معه تاريخ المعارك التى خاضها من أجل تحقيق استقلاله، والمراحل التى اجتازها لبناء أمنه واستقراره، والجهود التى بذلها العلماء والمفكرون والسياسيون من ابنائه وما وضعوه من مخططات لتنمية بلادهم وتأمين مستقبلها، كل ذلك يختفى مع ارتفاع ماء البحر بضعة أشبار ليصبح ضحية دورة عبثية من دورات الزمن،

والأدهى من ذلك أن الشاعر المالديفى الذى يبقى بعد الطوفان سوف لن يستطيع أن يبكى على الاطلال لأنه لن تكون هناك أثار واطلال يقف بجوارها ويبكى لمنظرها ولن يقول ما قاله شاعرنا لصاحبيه.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.

لأن ذلك المنزل سيكون هو الآخر قد طواه الموج وحالت بينه وبين الشاعر مياه البحر التى تواصل هديرها وكأنها تقهقه ساخرة من ضعف الإنسان وقلة حيلته فى مواجهة افات الزمان.

وإذا كان المرء يقرأ فى التاريخ عن الأمم البائدة والبلدان التى طوتها أمواج الزمان ويقرأ فى كتب الخيال عن جزر أسطورية مثل جزيرة أطلنطيس التى ابتلعتها مياه البحر، فإن ما يواجه جزر المالديف من خطر الفناء يضعنا وجها لوجه مع إحدى الحقائق القاسية التى عبثت بالإنسان منذ أقدم العصور.

دعنا نأمل ان يكون هذا التقرير الإخبارى مجرد تكهنات سوف تثبت الأيام أن لا صحة لها وأن البحر الذى

يهدد جزر المالديف سوف يسجل انحساراً وتراجعا يتيح لإعلام هذه الدولة الصغيرة ان تبقى خفاقة على دوام.

حمى ا شعبها من شر هذه الكارثة. وحمانا من مشاهدة مصير كهذا المصير يتعرض له وطن مسلم شقيق بكل ما يمثله ذلك من سخرية الاقدار بالبشر وعبث الزمان بأهل هذا الزمان.

***

الإنسان، الإنسان، هذا الكائن الذى شرفه ا بأن جعله خليفته فى الارض، ومنحه ملكات وقدرات ومواهب أتاحت له أن يقهر الطبيعة بقوتها وشراستها وعنفها ويسخرها لخدمته، ويحقق هذه المنجزات الهائلة فى مضمار التقدم والبناء ويصنع هذا التراكم الحضارى الذى أوصله إلى عصر الفضاء، وهذا الكائن المبدع، المتألق، الذى ملك هذه المؤهلات، وتدرج بمستوى حياته من كهوف العصر الحجرى إلى المراكب المسافرة إلى النجوم، وأنتج هذا التراث من الحكمة، وحقق هذه الانجازات والمنجزات

العلمية، يبدو غريباً كيف يستطيع مع كل هذه الخصائص العقلية والروحية التى يمتلكها أن يرتكب فى حق نفسه من الحماقات ما يبدو متناقضا ومتعارضا مع هذه الخصائص.

لقد جعل ا العقل هبة لكل بنى البشر، وجاء هذا الانجاز الحضارى باعتباره ميراثا لكل أهل الأرض، ولذلك فإن كل أمة من أمم العالم شريكة فى حضارة العصر لأنها أسهمت عبر مراحل التاريخ فى الوصول بالجهد الإنسانى إلى هذه المشارف التى وصل إليها. فمن أين إذن تأتى هذه الحماقات التى تصنع الشر وتوقظ الفتن وتحرك العصبيات والغرائز الرخيصة وتنبت فى أرضنا الكوارث والمجاعات، حتى لو اقتنعنا بأن التحدى الذى تصنعه الحروب والصراعات كان مسئولاً عن تفجير الطاقة التى تدفع بالإنسان إلى العمل والانتاج والاختراع، فها هو العالم قد وصل إلى مرحلة عبر مسيرة الدم والحروب تؤهله إلى أن يبنى عالما خاليا من هذه الفتن والكوارث ويحقق تعايشا سلميا بين أهله الذين اضناهم العداء والاختصام ويمضى فى مسيرته الحضارية فى عالم يسوده الأمن والسلام.

لا أدرى إن كان الامر يحتاج إلى عقل جدلى عبقرى مثل عقل ابن خلدون أو عقل أرنولد توينبى أو غيرهما ممن درسوا الحضارات واستنبطوا القوانين التى تحكم ظهورها واختفاءها، ارتفاعها وسقوطها، ولكن حضارات الأمس كانت حضارات تنشأ فى جزء من الدنيا ثم تظهر أمة جديدة أخرى تملك مؤهلات للقوة والسيطرة والعصبية فتقضى عليها وتأخذ مكان القيادة بدلاً منها، حتى تصل مرحلة الاستقرار والاستمتاع بمباهج الحياة التى يتيحها الاستقرار فيظهر لها قوم أكثر شدة وبأسا وقدرة على مجابهة الأهوال يصنعون بها ما صنعته مع الأمة التى سبقتها. ولكننا اليوم نعيش حضارة تشمل الكرة الأرضية بأجمعها فى عالم تلاشت بينه المسافات وضاقت الحدود وغمرت الحياة الجديدة كل أهله فصارت متجانسة فى أغلب مظاهرها، وهى حضارة ملكت من المقومات ما يضمن لها الاستمرار والنمو، ووصل فيها الإنسان إلى اعلى مشارف العلم والتقنية وغمرت الافكار التنويرية العقول، وصارت فيها المعارف حقا متاحا لكل الناس، فهل هى مجرد دورة عبثية من دورات الحياة، وهل يمكن لكل هذا التراث أن تذروه الرياح فى الفضاء، فلا

يصنع بالفعل انسانا جديدا قادرا على تحقيق الأمن والسلام والارتفاع فوق الغرائز البدائية والنعرات الرخيصة التى تصنع الفتن والكوارث والحروب؟ وهل هى جينات تختبئ فى بلازما الدم وتتحكم فى الإنسان، تعيده بدائيا كما كان وتدفعه إلى ارتكاب الحماقات وممارسة العنف طريقا لصنع التاريخ كما كان يفعل الإنسان الأول وسط بيئة شرسة وغابة تفرض قانونها الذى لا يضمن البقاء إلا للأقوى؟

هل نسلم بهذا المنطق، أم نختار جانب التفاؤل والمستقبل، ونضع رهاننا على هذا الإنسان الجديد الذى وعى كل دروس التاريخ واستوعب كل التجارب الإنسانية، فمضى بقلب عامر بالحب والايمان يصنع الأمن والسلام ويضيف إلى منجزاته الحضارية منجزات جديدة، عاما بعد عام وجيلا بعد جيل.